قميصُ الصّوف
وقصص أخرى

عنوان الكتاب : قميصُ الصّوف وقصص أخرى

تأليف: توفيق يوسف عوّاد

تقديم: مالك صقور

اختيار: فلك حصرية

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/128/شباط

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: mawkif@tutanota.com

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

توفيق يوسف عوَّاد

قميصُ الصّوف
وقصص أخرى

اختيار: فلك حصرية

تقديم: مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (128)

توفيق يوسف عواد

مبدع متعدد المواهب

مالك صقور

هو شاعر وروائي وكاتب لبناني، انطلق أَدبه من واقع الإنسان اللبناني، والبيئة المحلية ليبلغ بحرارته وصدقه ونفاذه عمق التجربة الإنسانية الشمولية، وكان لثقافته العميقة المنفتحة أثرها البالغ في صقل هذا الأدب الإبداعي الرفيع.

قال له الأديب الكبير ميخائيل نعيمة في رسالة على أثر صدور مجموعته القصصية المتميزة /الصبي الأعرج/ في العام 1936:

"كأنَّك ما خلقت إلا لتكتب القصة".

ولد توفيق يوسف عواد في /7 أكتوبر/ تشرين الأول/

1911 وتـــوفي في /16 إبريـــل/ نيســـان 1989/ نشـــأ في /بحرصاف/ بقضاء المتن الشمالي في لبنان، وعرف في طفولته وطأة الاحتلال التركي الذي رزح تحته لبنان خلال الحرب العالمية الأولى، ووسمت هذه الحقبة شخصيته وأدبه بطابع مأساوي وثوري عنيف بدا واضحاً وجلياً في رائعته الروائية /الرغيف/.

درس توفيق يوسف عواد في مدرسة /تحت السنديانة/ في قريته تحت إشراف /دير مار يوسف/ الذي كان يعلمه اللغتين: العربية والفرنسية لينتقل بعد ذلك إلى مدرسة /اليسوعيين/ بكفينا، وحصل على الشهادة الابتدائية في العام 1923 وبعدها أرسل إلى كلية /القديس يوسف/ ببيروت إذ أوكلت إليه المطبعة الكاثوليكية ترجمة روايتين من الفرنسية إلى العربية، وكان هذا قد سبق حصوله على شهادة البكالوريا بعام، لينال في العام 1928 شهادة البكالوريوس، وقد بدأ الكتابة في الصحف ولما يتجاوز سن الثامنة عشرة من عمره، وكان شغوفاً باللغة العربية.

بعد تخرجه من الكلية انصرف إلى الكتابة في

الصحف، فكتب في /البرق/ لصاحبها الأخطل الصغير، وفي /البيان/ لبطرس البستاني، وفي /الراية/ ليوسف السودا، وفي جريدة /النهار/ لجبران تويني. أول مقال ظهر له كان بعنوان /أخي الذي مات/ ونشر في مجلة /العرائس/ لصاحبها /عبدالله حشيمة/ وتولى خلال ثماني سنوات سكرتيرية التحرير في جريدة /النهار/ منذ تأسيسها ليكتب فيها زاوية بعنوان /نهاريات/ تحت اسم مستعار هو /حمّاد/، واستكمالاً لثقافته العامة وأساسه العلمي تابع دراسة الحقوق في الجامعة السورية ونال إجازة الحقوق في العام 1934 وكان قبل ذلك بعام قد تزوج السيدة أورطنس خديج ورزق منها أربعة أولاد: ربيع، سامية، هاني، جومانا.

في بداية عهد الاستقلال التحق توفيق يوسف عواد بالسلك الدبلوماسي فعين قنصلاً للبنان في طهران /1950 ـ 1953/ فقائماً بالأعمال في مدريد /1954 ـ 1965/ فوزيراً في سفارة لبنان في القاهرة /1957 ـ 1959/ وهكذا لينتهي به الأمر سفيراً في إيطاليا /1972/.

كان توفيق يوسف عوّاد واسع الاطلاع والقراءة لكثير

من الكتب بخاصة منها التوراة والقرآن وروائع الأدب العالمي لشكسبير وموليير ودستويوفسكي ولوتريامون، كما حضر في مختلف عواصم العالم مسرحيات كثيرة، وقرأ أخرى. أحبَّ منها بنوع خاص مسرحيات /جان بول سارتر/ وألبير كامو/ الوجودية.

يشير إلى مجموعته القصصية /الصبي الأعرج/ حيث يرى أنها من النوع الأدبي الأكمل في اتساعه لمراده. فالقصة إذن هي اليوم ـ ونستطيع أن نقول ذلك بلا حرج ـ المظهر الأكمل للأدب، لأنها وإن كانت نوعاً من أنواعه فهي تستوعب غرض كل الأنواع، تضم التمثيل، والملحمة، والشعر إلى حدٍّ ما، بل هي تمد ذراعيها فتتناول بهما موضوعات هي في الأصل من غير الأدب كالتاريخ والفلسفة والاجتماع والعلوم هي بعبارة واحدة مرآة الحياة بكل ما في الحياة.

وفي المجموعة القصصية /قميص الصوف/ التي اخترناها ككتاب جيب لمجلتنا الموقف الأدبي /العدد 162/ لشهر شباط/ استوقفتنا السطور: "وكان على المرآة صورة زوجها وقبالتها صورتان: الأولى لأمين وهو في العاشرة من عمره يحمل

كتاباً، والثانية له ولأوديث يوم العرس. يا له شبهاً غريباً بين أمين وأبيه، وجعلت الأرملة تنظر إلى زوجها وإلى ولدها حيناً بعد حين، والشَّاربان المعقوفان المرتفعان بزهو يتنقلان من وجه الأب إلى وجه الابن، ثم يعودان إلى الأب ثم يقفزان ويلتصقان بالابن".

إن مجموعة /قميص الصوف/ هي قصة الحماة والكنَّة، القصة الأبدية الأزلية، الحماة ابنة الجبل، والكنَّة ابنة المدينة، وتوفيق لا يقف عند هذه النقطة بل يتجاوز النزاع التقليدي بين شخصيتي الحماة والكنَّة، ليخترق ـ بجرأة ـ الجدار، ويدخل بنا إلى عالم مشحون بإشكالات وانفعالات شتى بخاصة أن الأم ترى صورة زوجها في ابنها وتعشق فيه زوجها المرحوم دون أن تشعر أو تدري، والواقع أن أديبنا المبدع عالج هذه العلاقة المعقدة بعنف تارة ولطف أخرى مستفيداً من قدرته على الإمساك بطابعه المزدوج الذي انفرد به بين كتاب القصة.

أما القصص الأخرى التي ضمتها المجموعة /الوسام ـ توها ـ بهية ـ الرفيق كامل ـ كاراخو ـ ميثاق الموت" فهي

عبارة عن صور حيّة للمجتمع اللبناني وهنا يقول فيها رئيف خوري: "يأيتها الجمال والقوة من كونها شعبية صادقة، أبطالها من هؤلاء الذي يمرّون على هامش الحياة يهملهم التاريخ، ولا يعبأ بهم المجتمع، وهو في الواقع أعظم قوة في المجتمع والتاريخ".

استشهد الأديب الكبير توفيق يوسف عوّاد إبان الحرب اللبنانية جراء قذيفة استهدفت منزل السفير الإسباني عام 1989 حيث كان متواجداً مع صهره السفير وابنته، فقتل على الفور مع ابنته الكاتبة ساميا توتونجي. صدر له المجموعات القصصية: الصبي الأعرج ـ قميص الصوف ـ العذارى ـ مطار الصقيع.

وروايتا: الرغيف ـ وطواحين بيروت، التي اختارتها منظمة الأونيسكو العالمية في سلسلة آثار الكتّاب الأكثر تمثيلاً لعصرهم. وقد ترجمت إلى اللغة الإنكليزية في العام 1976 ـ وإلى اللغة الروسية 1979 وإلى الألمانية 1983.

كما صنفت هذه الرواية واحدة من أفضل مئة رواية عربية.

أما مؤلفه /السائح والترجمان/ فقد جمع بين الشعر والنثر، ولكنه شعر على طريقة خاصة، وقد نالت جائزة أصدقاء الكتاب للمسرحية في العام 1962، وتمت ترجمتها إلى الفرنسية وصدرت عن دار /أوريان/ بباريس في العام /1966/ إضافة إلى الكتب:

فرسان الكلام: نظرات في الأدب والأدباء

قوافل الزمان: ديوان شعر

غبار الأيام: خواطر

إن توفيق يوسف عوّاد استطاع أن يأخذ المكانة الأدبية التي تليق بموهبته الأدبية في زمن العمالقة: الأخطل الصغير، خليل مطران، إبراهيم طوقان، وإلياس أبو شبكة، وقد مارس التجديد وحارب ورفض التقليد، وهو أول من وصف ميخائيل نعيمة بلقب/ ناسك الشخروب/.

قميص الصوف

أمضتِ الأمُّ يومَها في ترتيب المنزل، وصَرفت عِنايتها الكبرى إلى الحجرة التي أَعدَّتها لابنها وزوجته، ولمّا سوَّت السريرَين تراجعتْ تنظرُ إلى اللِّحافَين الأبيضَين وتُوازِن بينهما. ثمَّ دَنتْ فرفعت طرَفاً من هنا وَطَرفاً من هناك، ولاحت على وجهها ابتسامة رضا. وتذكَّرَت فجأةً أنَّ أَمين معتاد أنْ يضع تحت رأسه مِخدَّتين، فذهبتْ إلى اليوك[1] فأَزاحتِ السِّتار، وحملت مِخدَّة ناعِمة، فوضعتْها فوق الأولى على السرير الأيمن، وربَّتتها بيدَيها.

---

[1] اسمٌ لخزانة محفورة في الحائط تُحفظ فيها الفُرُش واللُّحفُ في القرى اللبنانية.

ولَّما ابتعدتْ عنِ السريرَين مَرَّة ثانية استفاق في ذِهنها، على غير وعي منها، ذلك العهد الذي كانت تنكبُّ فيه كلَّ يوم على تسويةِ اللِّحافَين بعد قيام المرحوم من النوم مبكِّراً وخروجه إلى العمل، كأنَّ زوجها يغادر المنزل في هذه الدقيقة، كأنَّها تسمع وَقْعَ قدميه يتلاشى على العتبة وصريرَ الباب يُغلقه وراءه بعُنف. فمشت في جسد الأرملة رعشة. وأحبَّت أن تستسلم إلى هذا الحُلم، فعادت إلى السريرين الباردَين عفواً تمهِّدهما على غيْر حاجة، ولم تشعرُ أنَّها تُفسد ترتيبهما السابق. ووقعَت من عينها اليسرى دمعة مدوَّرة على المِخدَّة، فانقشعت الصَّبابة عن تلك العين. وانحنت الأرملة على الدَّمعة، ولم تَدْرِ أَأَنفاسَ زوجها استنشقَت، أم أنفاس وحيدها الذي سينام هنا بعد قليل، أم أنفاس عُزلتها وكآبتها وحِرمانها في هذا البيت المهجور المملوء بالذكريات؟

ولَّما رفعَت رأسها استعادت وَعْيها الكامل، ونصّبت أذنها لسَماع رعد قاصف ارتجفَت له النوافذ ارتجافاً، ففركَت كَفيَّها من البرد وذهبت إلى المرآة. كانت قد رتَّبت المنزل كله ونسيت نفسها. ألا يجدر بها أن تلقي يداً على شعرها وتغسل

وجهها وتلبس غير هذا الثوب قبل أن يصل أمين وامرأته؟ أليس من واجبها أن تظهر بمظهر لائق أمام ابنة المدينة كنّتها المتأنقة؟

وكان على المرآة صورة زوجها وقبالتها صورتان: الأولى لأمين وهو في العاشرة من عمره يحمل كتاباً، والثانية له ولأوديت يوم العرس. يا له شبهاً غريباً بين أمين وأبيه! فكأن الأم تلحظ ذلك لأول مرة في حياتها، مع أنها تقف أمام الصور مرات في اليوم. الشبه ضعيف في الطفل، لكنه في الشاب بارز واضح: امتداد الجبين، وسعة الحدقتين، وقصر الأنف، والذقن المائلة إلى الطول، واستدارة الرأس وانتصابه بقوة. وهذا هو! هذا هو لولا الشاربان.

وجعلت الأرملة تنظر إلى زوجها حيناً وإلى ولدها حيناً، والشاربان المعقوفان المرتفعان بزَهْوٍ ينقلان من وجه الأب إلى وجه الابن، ثم يعودان إلى الأب، ثم يقفزان ويلتصقان بالابن. وتسارعت حركة تنقلهما، وخيِّل للمرأة أن لهذه الحركة صوتاً كحَزِّ الحديد على الحديد. حتى غاب الوجهان والمرآة وما عليها، فلم يبق إلاَّ الشاربان وقد تحوَّلا إلى عشرات الأزواج

مـن الشـوارب المتشـابهة تـروح وتجـيء. فـدار رأسـها وكأنهـا أصـيبت بصـداع، فمسـحت جبينهـا، وانصـرفت وهـي تفكـر بألف شيء ولا تفكر بشيء، ونسيت زينتها.

جلسـت علـى وسـادتها أمـام الموقـد تنكـت النـار بـالملقط، مصـوبة إلى الجمـرات الملتمعـة بـين يـديها نظـرات عميقـة. ثـم تناولـت الصـنارتين وقميصـاً مـن الصـوف الأبـيض كانـت قـد بـدأت نسـجه، ووضـعت كـرة الخيطـان في حضـنها واسـتأنفت العمـل... وأحسـت بالحنـان يغمـر قلبهـا لمـا نظـرت إلى هـذا القميص. ولدها ما يـزال يـذكرها. مـا يـزال يحبهـا بـالرغم مـن زواجه وابتعاده عنها. ألم يرسل إليها منـذ يـومين هـذه الخيطـان هديتـه، كمـا يقـول، في عيـد الميلاد؟ يقـول أيضـاً في رسـالته: "جـاء دوري اليـوم، يـا أمـي، في تقـديم الهـدايا إليـك"، بعـد أن كانت تقـدمها إليـه وهـو صـغير. ويعتـذر عـن تفاهـة مـا أهـدى، ولكنه يرى الصوف ذا منفعة في رد البرد في تلك القرية العالية. عليها أن تسرع في النسـج، وليتهـا تُجيـده مثل أوديت! إن يـديها لم تتعوَّدا إلاّ صُنع الأشياء الكبيرة الضخمة.

وأدغشت الدنيا، فنهضت الأم، وأشعلت القنديل، وألقت نظرة على الطعام. كانت قد ذبحت ديك دجاجاتها إكراماً لزيارة أمين. فلتبق الدجاجات بلا ديك! الليلة ليلة عيد، وأمين لا يأتي إلى القرية كل يوم. إن أمين لم يزرها منذ سنة. يكتب إليها مرة كل شهرين وكل أربعة أشهر أحياناً، ويقول إن صحته جيدة. ولكن أمه تعرفه، وتعرف أنه هزيل، وأنه عصبي المزاج، وأنه كثير التدخين، قليل الأكل مثل أبيه، وهي تريد أن يأكل ويسمن.

تقدم الليل. يجب أن تكون الساعة قد تجاوزت السابعة، وأمين وزوجته لم يصلا بعد. كانت الأم ترهف أذنيها لكل حركة في الخارج، ويقفز قلبها بين أضلاعها، وتقوم إلى النافذة صوب الطريق تمسح بكفها رَشْحَ المطر عليها وتنتظر.

تُرى، لماذا تأخر؟ بيروت لا تبعد أكثر من ساعة في السيارة، هذه السيارة التي تنهب الأرض نهباً، والتي ركبتها الأم أربع مرات في حياتها إلى بيروت ومنها، فما علمت هل اجتازت المسافة حقيقة أم أن طيراً من حكايات الجن حملها على جناحيه. هل انقلبت بهما السيارة، هذه الآلة الجهنمية،

فحصل له حادث، لا سمح اللّه! أم تكون امرأته حملته على تمضية ليلة العيد في المدينة بين صواحبها؟ تكون قد قالت له: "القرية! الجبل! أتريد أن نُضيع ليلتنا هذه إكراماً لأمك؟" هل أصغى إليها واقتنع منها ولَم يرحم أمه؟

لا. لا. إنه يؤكِّد في رسالته التي قرأتها لها بنت جارها ثلاث مرات، يؤكد أنه سيجئ، وأنه مشتاق إليها. وكانت الرسالة في صدرها فتناولتها وفتحتها، وطفقت تُجيل فيها نظراتها ـ وقد أمسكتها مقلوبة ـ فتقف عيناها على السطور والكلمات والحروف وقفات معذبة بلهاء. وبعد أن لبثت الرسالة في كفها دقائق طوتها وخبأتها في مكانها، وكأنها ذاقت تأكيده، على جهلها القراءة، فانفرجت أساريرها، وعاد إلى نفسها اطمئنان الانتظار.

غير أن الوقت طال فدب فيها اليأس من جديد. هذا شأن أولاد هذا الزمان! هذا شأن المتزوجين في هذا العصر المتمدن: عبيد لنسائهم! ثم لماذا هذه الهوة بينها وبين كِنتها؟ لقد حاولت الأم أن تمد بينها وبين تلك المرأة بساطاً من الألفة والعطف فلم توفق. فغذا بينهما جفاء وحذر، وإذا لقاؤهما ــ وقليلاً ما

تلتقيان ـ مملوء بالكلفة المزعجة لكليهما، وخصوصاً لأمين، يحار بين شطري قلبهن من هنا شطر يرتمي عليه ليلُمَّه عن الأرض، فيقع من هناك الشطر الآخَر.

كانت الأم تفكر بهذه الأمور وهي متوجهة إلى غرفتها لتنام. ثم قعدت في فراشها وصلّت بحسب عادتها كل مساء. وبحسب عادتها كل مساء أدارت وجهها إلى بيروت، إلى حيث كانت تخمن أن بيروت قائمة.

وصنعت إشارة صليب كبيرة ارتسم خيالها على الحائط كالشبح، ونفخت القنديل واضطجعت تتلمس الرقاد.

وما كادت تلقي رأسها حتى سمعت هدير سيارة على الطريق. حبست أنفاسها. وما هي إلا لحظات حتى دُقَّ الباب دقات متوالية قوية. هذه دقته. هكذا كان أبوه يأتي من قبله.

في الساعة الحادية عشرة انطلق جرس الكنيسة يقرع داعياً القرويين إلى قُدَّاس منتصف الليل. وكان الثلاثة: أمين وزوجته والأم، جالسين حول النار. الأم على وسادتها، والآخران على كرسيين متقابلين لأنهما غير متعودين التربع على الأرض.

وكانت الأم تشوي حبات من الكستناء حملها ابنها معه من بيروت، وتقدم حبة إليه وحبة إلى كنتها:

ـ أتصدق، يا أمين؟ إن للبلوط المشوي لذة غير لذة الكستناء. لا أعلم أي مرارة حلوة له تحت الضرس.

فالتفتت أوديت إلى حماتها وصاحت، وقد انفلق فمها بالاستهزاء:

ـ البلوط! البلوط مأكول الخنازير. إياك يا أمين أن تأكل منه!

فلم تجب الأم بكلمة. واكتفى الشاب بابتسامة بليدة هي كل ما استطاعه من تدخل بين أمه وامرأته. وتابعت الأم تقشير الكستناء والزوجة تنظر إليها تتناول الحبة وتنفض عنها الجمر بأصابعها:

ـ يا ماما! لو كانت أصابعي مكان أصابعها لاحترقت!

ونظرت إلى زوجها شامتة بأصابع أمه الخشنة أمام نعومة أصابعها هي. ثم رمت حبة بعنف وصاحت غاضبة:

ـ أتختارين لي الحبات الفاسدة؟!

ولم تكن الأم، في الواقع، تختار الحبات الفاسدة لكنتها، بل كانت تختار الحبات الحسنة لابنها وتعطيه إياها، وتعطيه معها نظرة عميقة طافحة بأسرار الحنان والحب والغَيْرة. فلم يبتسم الشاب هذه المرة، بل تناول حبة وأراد أن يقدمها إلى زوجته، فرفضت مدعية الشبع. وتابعت الأم تقديم الحبات إلى ولدها وحده.

وقرع الجرس قرعته الثانية، وكان له صوت رخيم في تلك الليلة الباردة من ليالي كانون. فارتاح أمين إلى رناته مستعيداً عليها صور صباه الذي أمضاه فيهذه القرية الصغيرة المتواضعة. فقد مضى عليه سنون في المدينة ولم يتسنَّ له مرة أن يسمع قرع الجرس في كنيسة من الكنائس صافياً هذا الصفاء.

وثقلت وطأة الصمت بين الثلاثة، فقام أمين قائلاً:

ـ يجب أن نلبس ثيابنا لنلحق القداس.

ودخل أمام زوجته إلى الحجرة. وذهبت الأم إلى غرفتها فلبست ثوبها الأسود، وركزت طرحتها السوداء على رأسها، ولفَّت حول عنقها شالاً أخضر من الصوف من نسج يديها. ثم

تقدمت إلى البهو تنتظر ولدها أن يخرج قبل زوجته، حتى عيل صبرُها، فطفقت تتمشى ذهاباً وإياباً بخُطى عصبية، وتدير وجهها إلى باب غرفته. ثم وقفت وانفرجت شفتاها وهمَّت بمناداته، فلم يطلع صوتها أولاً، ولكنَّه طلع في المحاولة الثانية عالياً خشناً:

ـ أمين! أمين! تعال أقل لك كلمة.

فأقبل أمين يعقد ربطة عنقه، فجذبته إلى حجرتها، وأغلقت الباب عليه وهي تنظر كالسارقة، وعانقته عناقاً شديداً، ثم أفلتته وأخذت تحدق إليه، إلى جبينه، إلى عينيه، إلى شعره، ثم مدَّت يدها تداعب صدره. وهجمت عليه ثانية تقبِّله وتضمُّه وتشمُّه. فأزاحها عنه، وحاول أن يتناول كفها ويرفعها إلى فمه، فمنعته وتناولت كفَّه وأكبَّت عليها بشَفتَيها. ثم رفعت وجهها فإذا عليه صورة هائلة: مزيج غريب من ضحك السرور وضحك اللَّوعة، أرادت أن يغلب الأول الثاني، فغلب الثاني الأول، فانفجرت باكية.

ـ نسَيتَني؟ نسيت أمك! نسيت أمك التي أنزلتك من قلبها، نسيتها وتركتها أرملة وحيدة مسكينة. أرأيت؟ أرأيتها

بعينيك؟ ماذا عملت لها لتكرهني هكذا؟ مات أبوك فقلت: لي هذا الولد. ربيتك بدموع عيني، فجاءت وسلختك عني سلخاً، لا أراك إلا من السنة إلى السنة. أتكُون بيروت أميركا ثانية؟ لكنها هي محرومة نعمة الأمومة. هي لا تعرف محبة الأم لولدها حتى لا يرزقها الله ولداً. الله يبعث لك ولداً يا ابني لأراه وأموت.

ـ اسكتي! اسكتي، يا أمي، أنا أحبك، وسأظل أحبك وأفضِّلك على نساء الأرض، لا تبكي.

مشى الثلاثة على الثلج في طريق الكنيسة، تغرق أحذيتهم فيه وتحدث كل خطوة خشَّة ناعمة كمن يدعس في بيدر. وكان الهواء يقرص الوجوه، والبساط الأبيض الكبير يبهر العيون، فشكت أوديت البرد، وأعلنت أنها ستقع مريضة بسبب هذه الليلة، ثم توجهت إلى زوجها وقد خفت صوتها وامتلأ حقداً:

ـ من أين لأمك هذا القميص الصوف الذي تنسجه؟ أتريد أن تكذب فتقول لي إنك لم ترسله إليها أنت؟

فعقد أمين حاجبه وأجابها بجزم:

بلى، أنا قدمته إليها. هذه أمي!

ثم رأى أمه تقترب منهما. فسكت وأراد أن يُسكت زوجته فنزع معطفه ولفَّها به. فنزعت الأم شالها عن عُنقها ولفَّت به عُنق ابنها، وأخفت أذنيه تحته، وردت طرفاً منه على صدره، وربطته بالطرف الآخر من وراء، فأخذ أمين يضحك من هذه القيافة ويحاول أن يعيد الشال إلى أمه، فرفضت.

بعد القداس تزاحم القرويون أمام المغارة في الزاوية الشرقية من الكنيسة. وكان كل منهم يحمل إلى الطفل العجيب هدية: هذا قروشاً يضعها في صحن على كتف المغارة، وذاك عنقوداً من العنف المحفوظ طول الشتاء في كيس، وهذه زوجاً من الحلق، وتلك كيساً صغيراً من الطحين. فلما جاء دور أمين تناول محفظته بحركة كبيرة يريد بها لفت الناس إلى هديته الستية وحط منها ربع ليرة في الصحن. أما الأم فتنبهت إلى أنها نسيت هديتها هذه السنة فأحست بخجل عميق. ثم وقفت أمام المغارة تتأمل الطفل المصغَّر، وانحناءة أمه العذراء وأبيه مار يوسف عليه،

والحملانَ والبقر، والضوء الذي يَشِعُّ عليه. ولبثت جامدة تنظر إليه طويلاً دُون أن يَطْرِفَ لها جفن. وخامَرها شعور مبهم ضعيف بادئ بدء، ثم أخذ يتضح شيئاً فشيئاً. ما أشبه فرحة العذراء بيسوع بفرحتها هي يوم ولد أمين! لكنَّ طفلك هذا، يا مريم، سيسلخونه عنك ويصلبونه! وستقاسين آلاماً هائلة لم تقاسها امرأة في الدنيا! والأم تعرف شيئاً من هذه الآلام وإنْ لم يصلبوا وحيدها لا سمح الله! ولا سمح الله أيضاً بالشبه بين يسوع الإله وأمين الإنسان الحقير!... أغفر يا يسوع لهذه الأم المعذبة كُفرها! أنت نزلت في أحشاء عذراء لم يمسها رجل، وهو ثمرة أحشاء امرأة أحبَّت رجُلاً حتى الجنون، رجلاً كانت ترى السعادة بين ذراعيه، فإذا الموت يحطِّمه ويرميه جثة في القبر الملاصِق لهذه الكنيسة...

وجثت الأم وضمَّت يديها الاثنتين، وحنَت رأسها إلى اليمين، وصلَّت من أجل زوجها ومن أجل وحيدها بخشوع حقيقي.

حينما عاد الثلاثة إلى البيت تقدم أمين إلى أمه وتمنى لها عيداً سعيداً. فقبَّلته على خَدَّيه، وتبادلت مع أوديت عناقاً

جافاً، وذهبت إلى حجرتها. وبينا هي تخلع ثيابها سمعت جدالاً بين الزوجين، ثم ضحكت وقحة من كنتها. فأصاخت، فاستطاعت أن تتبين من الحديث أن أوديت تهزأ بزينة الأم، وتقول إن مسحات البودرة ظاهرة على وجهها وإنها، هي الأرملة الكبيرة في السنّ، الحزينة على زوجها، ما حاجتها إلى الزينة! وسمعت أمين يُعنّف زوجته على مثل هذه الملاحظات، ويقول لها إنها أشياء لا تعنيها، فمن واجبها أن لا تتدخل فيها بخير ولا بشَرّ غير أن لهجته في التعنيف كانت ضعيفة، وكان يسكت على كلمات أحسَّت الأم بأنّ عليه أن لا يسكت عليها، وودَّت لو تدفع هذا الباب بيديها وتدخل وتقف في وجه كنتها وتقاتلها!

ولما انقطع الجدال أقفلت الأم باب حجرتها، وحملت القنديل إلى جانب المرآة، وجعلت تنظر إلى وجهها. أصحيح أن المسحات ظاهرة عليه؟ بودرة! بودرة! إنَّ الأم لم تعرف البودرة في حياتها، بل تستعمل دلوك البيض[1] الذي كانت أمها

---

[1] لا تزال بعض القرويّات في لبنان يستعملنه، وهو كناية عن قشر البيض مدقوقاً ومعجوناً بطريقة خاصة.

تستعمله من قبلها. أجل، بعض مسحاته ظاهرة على خدها الأيمن، نتيجة السرعة حينما تزيَّنَت قبل الخروج إلى القدَّاس، أو هي الخطوط التي أحدثتها دموعها لَمّا بكّت على كتف ابنها. لِمَ لَمْ تُعِد نظرَها على وجهها قبل الخروج؟ بل لِمَ لم ينبِّهها أمين إلى هذه المسحات، مع أنها سألت عن وجهها وعن طرحتها وعن ثيابها، فأجاب أن كل شيء فيها جيد؟ أتراه يهمل أمه إلى هذه الحد؟ ولِمَ يقف أمام امرأته دقائق وهو يسوي قبعتها، وزنّار معطفها، وصَفَّة شعرها؟

ورفعت الأم يدها إلى خدِّها وجعلت تزيل المسحات، وكأنها تحسِّن ظن نفسها بنفسها بعد فوت ما فات. وجمدت عيناها فجأة. أجل، لقد كبرت! إن الشيخوخة تهجم عليه وتفترس جمالها افتراساً، فالزَّمَّة في العين اليسرى، التي كانت غمزة ظريفة على قول زوجها لها، زادت وأصبحت عيباً صريحاً، وهذه التجاعيد؛ وهذه الظلال القاتمة تكسو الخدين؛ وهذا العُنُق برز وريده وارتخت أعصابه، وهذه الشعرات ابيضَّت وذهب أكثرها فاضطرت إلى استعمال الجدائل المستعارة، وهذا الفم ترهلَّت شفتاه ونضب ماؤهما...

لقد كبرت! حقاً قالت عنها كنتها ما قالت.

وهزَّت الأم برأسها ونظرت عفواً إلى صورة أوديت المعلقة إلى جانب المرآة. كانت جميلة بثياب العرس؛ عيناها المنيرتان الصافيتان، قامتها المعتدلة، وجهُها المدور، وفمها ذو الشفتين الرقيقتين. جميلة، ولكنّه جمال لا تدري الأم أي قِحَة فيه. جمال لم ترَ مثيلاً له في بنات القرية. أتُراها لا تحبُّه لأنه غريب. أم لأنَّ أوديت، وهي تتكلم، تنعكس نفسها ذات الأهواء العديدة الجامحة على وجهها، فتتكره قروية لا تستطيع أن تفهم الجمال بلا براءة؟

ولكن ما لها هي والجمال؟ قبيحة! عجوز! خرقة بالية! ما يُهمُّها؟ أليست هي أُمّاً؟ ألا يحق للأم أن تُحب ابنها، وتطالبه بحبِّها؟ ومن لها في الدنيا سواه بعد وفاة أبيه؟

***

ورجعت الأم تحدق إلى صورة زوجها وصورة ابنها، وتستعيد في ذاكرتها حياتها الماضية من أولها إلى آخرها. وكانت صُوَر تلك الحياة تتوالى أمام عينيها واحدة واحدة بوضوح نادر.

عاشت مع زوجها سنتين غير كاملتين. كانت تعبده عبادة. تزوجت على كره من والديها وكانا يريدان زَفَّها إلى ابن عمَّ لها. تتذكر، في هذه الساعة، كيف التقته على العين وهي تملأ جرَّتها، وكيف دنا منها واتفق معها على خطفها، وكيف خرجت في الليل حافية، بعد أن نام والدها وإخوتها الصغار، حاملة صُرَّة ملابسها، وكيف مدَّ هو يده من العربة فتناول منها الصُّرَّة أولاً ثم احتملها إليه، ودرجت العربة بهما إلى بعيد، وأخذ الحُوذِيُّ يُلهِب أكتاف الفرسَين وآذانهما بسوطه... تكاد ترى خيال السوط في الفضاء، وتكاد تسمع وَقْعَ حوافر الفرسين وحَزَّ الدواليب علىَ حَصَى الطريق، وكيف وقفت إلى جانبه أمام كاهن القرية المجاورة، وكيف عاد والداها فرضِيا وأقاما لها عُرساً بعد أن رأيا نفسيهما أمام الأمر الواقع.

هل كانت تظن في ذلك أنه سيموت بتلك السرعة؟ صفقة هواء ذهبت به في أسبوع فانقصف انقصافاً. أمضت مدة الزواج كله وهي لم ترفع إليه اعتراضاً. كان أميرها المُطاع، وكانت أمَتَه. أجل، كان يقسو عليها بعض الأحيان فيصيح بها أو

يرفع عليها يده. فلا تلبث أن تزحف إليه مستغفرة عن ذنب ربما كان هو مقترفه، وتحوم حواليه وتغسل رجليه. أليس الرجل رأس المرأة كما يقول الدين؟ أليس الرجل يعاني الحياة وأتعابها؟ فعلى من يلقي همومه وغمومه إن لم يكن على امرأته؟ إنها الآن تتذكر تدويرات عينيه فيها، وتحس صيحاته في أذنيها حلوة، ويده عليها لذيذة. ليته عاش ليعنِّفها دائماً، وليملأ البيت بأنفاسه دائماً! ليته عاش ليرى ابنه! مات قبل أن يولد بشهر. وحينما رأى الصغير النور قالت: سيكون اسمه أمين على اسم أبيه...

وقد أخذ أمين عن أبيه أشكاله وطباعه. أما هو ذو جبروت مثله؟ ألم يرفع يده مرة عليها كما كان يفعل أبوه؟ ولكنه فقد جبروته بعد زواجه. لماذا لا يرفع يده على امرأته؟ لماذا؟

... وأمضت الأرملة السنين تبكي، جاء شبَّان كثيرون وخطبوا يدها، فأعرضت عنهم لتقفِ نفسها على وحيدها. قطعت كل صلة لها بالرجال، موقنةً في عقلها وفي قلبها أنَّ رجُلها مات ولن يرجع. وكانت تنظر إلى الصبي يكبر بين

يـديها فيُـنعش أملـها ويتحـوَّل عزاؤهـا فرحـاً وزهـواً عظـيمين. كانت تحتضنه وتقول له: أبوك مات وتركني لك، فأنت ابني وأنـت رب البيـت مكـانـه. وكـانـت تغسـل رجليـه كـل مسـاء، وتُضجعه إلى جانبهـا في فـراش واحـد، إلى أن تجـاوز مـن العمـر السابعة عشرة، فانفرد بفـراش لـه علـى كُـره منهـا، فاسـتبقت مـن عادتهـا زيارتـه في فراشـه كـل صبـاح، وتدفـئـة قلبهـا علـى حرارة لحافه.

وكانت تغار عليه من النسـاء، إذا حـدثها قبـل زواجـه عـن إحـداهنَّ مـداعبـاً تجهَّـم وجههـا، وشـنعت بهـا تشـنيعـاً، أيكـون ذلك لأنها لم تكـن تريد لأمين زواجاً؟ كانت تقول له إن الفتاة التي ستكون عروسه لم تقع عليها عيناها بعد. وكانت تصنـع في مخيلتها بعض الأحيان صورة تلك العروس، ولكنها لا تلبث أن تخرِبها وتطرد الفكـرة. وتـذهـب إلى وحيـدهـا وتعانقـه، دون أن يعلم هو السبب أو المناسبة.

وهـا هـو قـد تـزوَّج. كانـت الأم علـى حـق في خوفهـا مـن بيروت، المدينة المملوءة بشيطانات النساء. نزل ليتقلَّد وظيفـة في الحكومة. فأحست لدى وداعه أنه ينسلخ عن قلبها انسـلاخاً لا

ردَّة له. ولكنه وعدها باكياً بأنه سيطلع إلى القرية ويزورها مساء كل سبت، وينزل إلى عمله صباح الاثنين، قام بوعده ستة أشهر دون أن يُخلف مرة. ثم أخذت غيباته تطول بأعذار شتى. فتستنطقه إذا التقيا، فيُنكر، فتكذب نفسها حيناً وتكذِّبه حيناً، وأخيراً ظهرت الحقيقة عارية:

ألم أكن أقول لك، يا أمين، إنك تُحِبّ؟

... كيف ألحَّ عليها وانطرح يقبِّل رجليها. وتركته يفعل لأول مرَّة في حياتها. وكيف أقنعها. فذهبت معه إلى بيروت وقامت بزيارة لأهل الخطيبة، وكيف عادت إلى البيت ولبثت حزينة، مع أن أوديت أعجبتها بجمالها، وكيف زوَّجته بعدئذٍ وحاولت أن تسكُن معه في المدينة، فقام الخلاف بينها وبين كنتها. وكيف كانت تنتظر من أمين أن يدافع عنها فإذا هو يصيح بوجهها مؤنِّباً ويدعوها للرجوع إلى القرية. وكيف ذهب فأمضى ليلته بجانب امرأته وترك أُمه تقبع في غرفتها وتبكي، وكيف قامت في الصباح وحملت صرَّة ثيابها ورجعت إلى القرية مخلوقة مهانة حقيرة، أرملة شقية، وأمّاً تذوق أفجع من الثكل.

كانت الأم تمضغ في ذِهنها هذه الذكريات وهي تحدِّق إلى صورة ولدها. ثم نقلت عينيها إلى صورة زوجها وتأمَّلَتها مليّاً، فخُيِّل إليها أن أجفانه تتحرك، وأن فمه ينفتح، وأنه يبتسم لها ويخرج من الصورة ويمشي في البيت. فاقشعرَّ بدنها. وأدارت رأسها وكأنها تفتش عنه، عن يمينها، عن شمالها، وراءها...

زوجها لا يعاملها هذه المعاملة!.. لماذا هذه المقابلة بين زوجها وابنها؟ لذا تختلط صورة هذا بصورة ذاك؟ ابنها لا يمكن أن يكون لها مثل زوجها. لقد تزوج. ألا تكفيها سعادته؟ ولكن في الواقع لماذا لم تسأله مرة بعد زواجه: هل أنت سعيد؟ ولماذا لا يقول لها شيئاً من تلقاء نفسه؟ لماذا تغير طبعه بعد زواجه، فأصبح كتوماً جافياً، وكان يركض إليها فيبوح لها بأفكاره وخلجات قلبه؟

ودار رأس الأم فتنهَّدت تنهّدة عميقة تلقي بها عنها حملاً إلى الأرض. وقامت تريد النوم. لكن قدميها قادتاها عفواً إلى الباب فشقته، وأصغت لجهة غرفة أمين وزوجته، ثم انسلَّت ووضعت أُذنها على الباب الآخر. لقد رَقدا. كيف تعرف هل هما في فِراش واحد؟

نظرت من خصاص الباب فلم تتميز شيئاً، الظلام دامس. وإنَّ الارتباك ليُحرق شفتيها تحت أسنانها، إذا بالسماء تُسعِفها ببرق، وإذا بها ترى الفراشين ملآنين. فانخلع قلبها انخلاعة فرحٍ، ومدت أصابعها إلى المزلاج برفق وأخذت تشق الباب، ثم مرقت منه على إبهامي رجليها، مادة يديها أمامها تتلمسان طريقها. وكانت تحاذر في وضع كفيها لئلا تقعا على عُضو منه فيستفيق. فإذا حدث ذلك فماذا تقول؟ ماذا يقول هو؟ وإذا أحسَّت كنتها، فماذا تفعل؟ أخيراً لمست يدها اليمنى طرف اللحاف فرفعته بتؤدة. وحدثتها نفسها بأن تصعد إلى السرير وتضطجع إلى جانبه هذه الليلة، ساعة من هذه الليلة، دقيقة واحدة، أن تشعر بأنفاسه على وجهها، أن تضمَّه إلى صدرها بقوة، أن تُحس بأنه ما يزال ملكها، ما زال لها منه شيء...

وهي تتذكر الآن وقفة سبقت لها بجانب هذا السرير مثل هذه الوقفة، إذ غضِب زوجُها عليها لأمر من الأمور ونامَا متباعِديْن، فقامت في الليل إلى فراشه تسترضيه، وحاذرت مثل هذه المحاذرة. ولكن، هذا ابنها، وذاك زوجها، وابنها غير غاضب عليها لأمر من الأمور، فلِمَ لا ترفع اللِّحاف وتعانقه؟

وهمَّت بأن تنفِّذ إرادتها، فدار أمين على نفسه، فظنت أنه استفاق، وأنه يشعر بوجودها. فطلعت إلى ذهنها ذكرى أخرى أقرب من الأولى، مزعجة هذه. ذات أشواك وإبر حادة. ذكرى ترجع إلى عهدٍ كان أمين ينام معها في فِراش واحد، بل إلى الليلة الأخيرة من ذلك العهد، ليلة رأت نفسها في الحلم بين ذراعي زوجها يضغطُها بكل قوَّته ويعصِرها فتذوب على صدره حبّاً، وتقبَّله على فمه قبلة كبيرة، فإذا هي تستيقظ وشفتاها على شفتّي ولدها، فاستغفرت مريم العذراء وطردت الشيطان.

وها أن الحلم نفسه يعود، فتطرده، فيعود عنيداً... حينئذٍ أدارت الأرملة رأسها نحو سرير كنتها وقد بدأ قلبها يضاعف خفقاته، فلم تر شيئاً لشمول العتمة، فرسمت إشارة الصليب ثلاث مرات، ثم انحنت على سرير ابنها فاتحة شفتيها، وقبلت عضواً ظنّته جبينه، فإذا السماء تبرق من جديد، وإذا الأم ترى نفسها على مؤخرة السرير وفمها مطبق على قدم أمين. فطفرت الدموع من عينيها، فغطت قدمه جيداً، وعادت إلى غرفتها تخنق الشهقة في حلقها خنقاً.

***

في الصباح أفاقت الأم على صياح ديكة الجيران يتجاوب من بيت إلى بيت، ولم تَدْرِ أي انقباض خامرها لسكوت ديك دجاجاتها سكوتاً أبدياً.

طلبت أوديت من زوجها أن يذهبا في نزهة على الثلج في ذلك النهار المشمس الذي تصعد فيه من كل ناحية في الأرض والسماء فرحة هادئة قريبة جداً من الحزن. أليس للحزن أحياناً مظهر الفرح، وللفرح مظهر الحزن، فهما متداخلان لا يفترقان، يشعر القلب بهما معاً، ويتعب العقل تعباً مزعجاً في شطر الواحد عن الآخر؟

كانت تودُّ لو تصحبهما في هذه النزهة، ولكنها انتظرت أن يدعوها أمين، فلم يفعل. ثم إنَّ زوجته كانت تقفز قفزاً وتستعجل في الخروج. فخرجا وبقيت الأم وحدها، وأرادت أن ترتب البيت، ولكنها تذكرت شيئاً، فذهبت إلى قميص الصوف، وكان عليها أن تُكمل نسج الكُمِّ الثاني منه، فقبعت في الزاوية تُدخل صنارتيها في الخيطان وتُدخل الخيطان في النسيج بحركات عصبيَّة مسرعة، فإذا أخطأت في نسجة أو خانتها يدها، غضبت على نفسها غضباً شديداً.

ومضت ساعة من الزمن فإذا أمين وأوديت يعودان في سيارة. فقفز قلبها فزعاً، أيريد أن يتركها؟ أيريد أن ينزل الساعة إلى بيروت؟ أقنعته زوجته. سينزل دون أن تشبَع منه أمُّه وتروي قلبها...

وكان ذلك، ولكنَّ الأم لم تُلح، اكتفت بكلمة واحدة، كانت تُحسُّ بتصلُّب في شعورها غريب. هو أكثر الكلام وحشر الأعذار بعضها إلى بعض، فأصغت إليه ساكتة وقد ظهر على وجهها أنها تصدِّقها كلها، في حين أنها لم تكن تصدق شيئاً، كان كلامه يرتدُّ عن قلبها كما ترتدُّ الطابة عن حيط.

***

لمّا قعد أمين وزوجته في السيارة سحبت الأم من تحت إبطها شيئاً ملفوفاً في ورقة، ودفعته إلى ابنها، وقالت له:

ـ هذه هدية عيد الميلاد من أمك، أخاف عليك من البرد، دفئ بها صدرك.

ثم التفتت إلى كنتها وتابعت بابتسامة:

ـ يا ابنتي، أوصيك به، إنه لا يُعنى بصحته.

فمزق أمين طرف الورقة، فإذا فيها القميص الذي أهدى صوفه إلى أمه لتصنعه لنفسها فصنعته له، فتناول كفَّها ليقبلها، فأرجعتها وأهوت عليه تعانقه، وكانت أوديت قد أشارت إلى السائق بأن يمشي، فتحركت السيارة، وجاءت القُبلة الأخيرة في الهواء.

ولمَّا توارت السيارة وانقلبت الأم إلى بيتها، أحست في جنباته، على فُرشه الباردة الباقية على السريرين والأرض، وعلى ثيابها السوداء الطويلة، وفي أعماق نفسها، رطوبة اليأس وعتمته وثقله، فكأنها تعود الآن من دفن زوجها...

.... كأنّها ترمَّلت مرة ثانية.

الوسام

لمّا دخل بركات الراسي مأوى العميان خُيِّل إليه أنه يدخل قصراً منيفاً، أمسكه الكاهن بيده وقاده صعوداً على درج طويل وهو يلاطِفه ويردِّد عليه!

ـ أنا ملاك الرحمة أيها الضرير، أرسلني اللّه إليك لأخلِّصك من شقائك! الشغل هنا قليل والراحة كثيرة، تأكل وتشرب مع رفاقك السعداء، والخدم يعتنون بكم، وأنا أسهر عليكم كما تسهر الأم على أولادها.

وكان بركات يودُّ لو تنفتح عيناه ليرى صاحب هذا الصوت الناعم، ووجه هذا المُحْسِن الكبير، ولكنَّه كاد، وهو يفكِّر بهذه الأمنية، أن يعثر على إحدى الدرجات لو لم تتداركه عصاه ويد رجل اللّه، فتابع سيره، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة اعتذار.

وقف مدير المأوى عنايته، ذلك اليوم، على الضيف الجديد، فطاف به أقسام المأوى من قاعة النوم، إلى المشغل، إلى ساحة النُّزهة، إلى المطعم، وأَبَى أن يخرج به من المطعم إلاّ بعد أن أمر له بحساء ولحم وحلوى.

وبعد الظهر قاده إلى المشغل، فسمع بركات على العتبة خشخشة القشِّ، وطلعت رائحته إلى أنفه، وما كاد المدير يدخل حتى وقفت الحركة في الغرفة، وأخذ كلٌّ من البضعة عشر أعمى يُسوِّي جلسته ويرفع في الفضاء عينيه المُطفأتين منتظراً، فإذا صوتٌ عريض يعرفونه يقول:

ـ جاءكم رفيق لكم. أُدخل يا بركات. هؤلاء إخواتك، أوصيكم بأن يُحِبَّ بعضكم بعضاً... يا أبو عمشة، سلِّم إلى بركات شغلاً.

فقام أحدهم إلى بركات، وأخذه من كتفه إلى زاوية في المشغل، وأعطاه هيكل كُرسيٍّ وقشّاً، وأوصاه بالإتقان.

وما تلاشى وقع قدمّيِ المدير حتى انحنى العُميان يهمس بعضهم في آذان بعض:

ـ بركات؟

ـ بركات؟!....

ـ بركات الراسي، أم غيره؟

فهتف بركات مسروراً:

ـ بلى. بركات الراسي!

فزحف إليه ثلاثة يعرفونه، وأخذوا يتحسسونه ويسلمون عليه

ـ كيف علقت بالفخ يا بركات؟

ـ خدعه ملاك الرحمة، كما خدعنا!

ـ يتاجرون هنا على ظهورنا ويأكلون أتعابنا. الله يعاقبهم!

ـ الله مع المفتحين، وهو مع العمي علينا!

ـ خبِّرنا يا بركات، خبِّرنا كيف اصطادك أبو الدَّقن الملعونة؟

ـ هس! هس! أبو عمشة يسمعنا.

وعادت الأيدي إلى العمل وساد الردهة صمتٌ مُريب لا يقطعه إلا صوت القش طالعاً نازلاً، وسعال يخرج من أحد الأركان وكأن صاحبه يبصق فيه دمه.

أصغى بركات إلى أحاديث أصدقائه الثلاثة يوسف وحنا وفريد. أصحيحة هذه الأشياء التي يقولونها؟ الأكل قليل!... والشغل كثير!...

والمدير ظالم!... وأبو عمشة جاسوس!...

ـ وإذاً، فلم لا نخرج من المأوى ونعود إلى تقشيش الكراسي للناس؟

فضحك الثلاثة ضحكة مُرَّة، وتابعوا شرحهم لبركات يُفهِمونه أنه مضطر إلى العمل من الصباح إلى المساء، وأن له على كل كرسي قرشين إذا كان عازباً، وخمسة قروش إذا كان متزوجاً ـ والمتزوجون في المأوى أربعة فقط ـ وتبقى الأرباح

في صندوق المأوى. يأتي يوم الأحد من كل أسبوع أهل المتزوج فيأخذون نصيبهم، ويبقى نصيب العازب أمانة إلى يوم لا يعلمه إلا الله، لأن الباب مفتوح للداخلين، مقفل على الذين يريدون الخروج.

لم يصدق بركات بادئ بدء أذنيه، فالمدير رجل لطيف يأتي كل يوم إلى المشغل ويربت كتفه ويسأله عن حاله، ويتفقده على المائدة، ويأمر الخادم بملء صحنه إلى فوق. وأبو عمشة لا يفتأ يحوم حواليه مردداً: إذا عرضت لك حاجة فقل لي أقضها لك، ثم يردف: أرأيت هذا المدير؟ قِدِّيس!

ولكن الحقيقة ظهرت أخيراً. كان يوسف وحنَّا وفريد على صواب. العميان يتذمرون جميعاً، بل ها هو يختبر بنفسه: المدير يُهمِله، وأبو عمشة ينتهِره، والأكل قليل، والشغل كثير. فحزن بركات، وانفرد في زاوية ذات مساء يفكر. فأحسَّ أبو عمشة بأن بركات لا يشتغل، فصاح به:

ـ حرِّك يديك!

فلم يُجبّه، فصاح به:

ـ اشتغلّ!

فظل معتصماً بالسكوت.

ـ أتريد أن أنادي المدير؟ قلت لك حرك يديك! حرك يديك! اشتغل!

فسارت بين العميان غمغمة منكرة، فجعل أبو عشمه يدور على نفسه من الغيظ، ثم دنا من بركات متلطفاً وهمس في أذنه:

ـ يا بركات، لا تسمع لهم... ما بك؟

ـ أنا مريض، لا أستطيع أن أبقى هنا. أين المدير؟ قل لي إني أريد ترك المأوى.

ـ ترك المأوى؟ ها ها!

وابتعد أبو عمشه، فعاد بركات إلى وجومه، وقد ثارت في نفسه عاصفة من الغضب، إلا أنه كبحها واستأنف عمله.

ولما أوى العميان إلى أسِرَّتهم في الليل، استلقى على ظهره وترك أذنيه في الفضاء يتسمَّع. كان العميان يتمازحون قبل النوم ويتراشقون بالنكات، فيصيح بهم أبو عمشه: ناموا!

ناموا! وكان يعرف صوت كل منهم، غير أن بركات لم يَنْبِس تلك المرة ببنت شفة. فقال أبو عمشه:

ـ تشبهوا ببركات، وصلُّوا وناموا!

وظل بركات ينتظر والشخير يتبع الشخير حتى ساد النوم الغرفة. وكان يحبس أنفاسه ويحاول أن يتبين من خلال هذه الضجة حركة أو صوتاً يدل على يقظة أحد. ثم رفع اللحام عنه، وأنزل رجليه الحافيتين إلى الأرض، ودفع يديه أمامه، وما صدق أنه خرج حتى أغلق الباب وراءه برفق، وتلمس الحائط. هذا حائط المشى. ومن المشى إلى البهو، ومنه إلى الساحة، ومن الساحة... أفٍّ أهي طويلة إلى هذا الحد المسافة بين أول الساحة وسُورها؟ هذا ترابها الناعم البارد يداعب رجليه. آخ! حجر محدد يغرز بين أصابعه. لا بأس، شرط أن يراه المدير أو مريم الخادمة الملعونة. هذا هو السُّور، هذا هو السُّور! هذا ملمسه الخشن، وهذه حجارته النافرة! وتسلق بركات السور بيدين ورجلين ترتجف. إلى فوق، إلى فوق!... إذا كان للسور هذا العلو من الداخل، فما علوه من الخارج؟ سيرمي بنفسه إلى الشارع مهما يكن من أمر، فيصل سالماً أو

محطماً، لا فرق. ألا يتخلص من هذا السجن على كل حال؟... ثم يعود إلى حياته الأولى فيطوف في الأحياء وينادي: قشّاش كراسي! ق....شاش كراسي!

وبينا بركات يتسلق الجدار متذوقاً طعم هذه الأمنية العذب، استشعر حركة وراءه في الساحة، فانخلع قلبه وانحلت يداه ورجلاه، فجمد هُنيهةً ينتظر، فإذا صوت المدير في أذنه مع قهقهة ساخرة:

ـ أهذا أنت يا بركات؟!

وظن بركات أن في استطاعته الخلاص بنفسه، فرفع رجله اليمنى، ولكن يداً كانت قد أمسكت برجله اليسرى وشدت بها، فوقع مجرجراً وجهه على حجارة الحائط الناتئة، حتى سال منه الدم، وجعل يصيح:

ـ أُتركني! أُتركْني أخرج!

ـ يا مسكين يا بركات!

فعرف بركات صوت أبو عمشه:

ـ أنت أيضاً يا أبو عمشه؟.. بحياة جروح المسيح تتركني يا محترم! أُتركْني...

ولم يُكمل بركات توسله حتى أحس بالكاهن ومساعده ينهضانه عن الأرض، فأرخى ثقله بينهما، وأبى المشي، فانتهره المدير بصوت أجش:

ـ امشِ، امشِ!

وتناول من جيب قبائه الواسع سوطاً من الجلد يحمله دائماً مع السبحة، وأمر أبو عمشه، فلَفَّ يَدَي بركات خلف ظهره، ثم انهال بالسوط على المتمرد ضرباً على رجليه وكتفيه ورؤوس أصابعه المجموعة. ثم صاح:

ـ احْمِله معي يا أبو عمشه!

فحملاه ومشيا، ثم نزلا به دركات كثيرة وهو لا يعلم إلى أين ثم حطاه على الأرض. فسمع صوت مفتاح، ثم صرير باب ثقيل، ثم أحس بيدين تدفعانه إلى الداخل، وبقَدَمٍ ضخمة ترفُسه على قفاه، وسمع المدير يشتمه وأمه، فحاول أن يجيبه عن شتيمته، ولكن الباب أغلق على ظهر، فنادى فلم يجبه أحد، فعالج الباب ساعة حتى إذا يئس منه طاف في المكان متلمساً الحيطان والأرض، فعرف أنه في القبو، لأن صديقه

يوسف كان قد حدثه عن هذا الحبس، وأخبره بأنه أمضى فيه ليلة هي أفظع ليالي حياته.

وظل بركات واقفاً على قدميه هزيعاً من الليل، ثم اهتدى إلى حزمة من القش في زاوية من زوايا القبو فاضطجع عليها، وأدركه النُّعاس.

استفاق مع الفجر على حذاء المدير يرفسه ويقول له:

ـ سيقودك أبو عمشة إلى الكنيسة لتسمع القداس، وإياك أن تفوه بكلمة! لا أنت حاولت الهرب، ولا أنا وضعتك هنا، وإلا كان جزاؤك أسبوعاً كاملاً في هذا القبو، مع كأس ماء في اليوم، لا أكثر ولا أقلَّ.

وما انتهى القداس والتقى العميان في الساحة حتى زحف بركات إلى يوسف فأخبره بما حدث له، ويوسف أخبر حنّا، وحنّا أخبر فريد، وفريد أخبر كرم، وكرم أخبر رشيد، ومن رشيد إلى أبو عمشه، ومن أبو عمشه رأساً إلى المدير، ولكن المدير مسح بكفه كتف أبو عمشه، وهون عليه، فقال أبو عمشه:

ـ إن بركات يسبك أمام العميان كلهم، وهم يستمعون إليه ويهزأون بي!

ـ أنسيت، يا بُنيَّ، أن الله يوصينا في إنجيله أن نحب أعداءنا ومبغضينا، وأن نحسن إلى من أساء إلينا؟

ثم أردف:

ـ هؤلاء الخنازير لا يقدرون التضحية! ولكن هنالك أناساً يقدرونها، هل عرفت، يا أبو عمشه، بالخبر؟ لقد قررت الحكومة أن تمنحني وساماً! هل تفهم؟ سيعلقون على صدري نيشاناً.

ويا ليت أبو عمشه كان مبصراً ليرى على وجه سيده التهاليل!

***

عند الظهر، بينا كان العميان على المائدة، إذا بصوت بركات يصيح:

ـ هاي أنتِ يا مريم! ما هذا الطعام الذي لا يأكله الخنازير؟ اللحم تفوح رائحته بالنتن، قولي للمدير نريد لحماً طازجاً.

ولكنّ الخادمة ظنت الأمر مزاحاً، فقهقهت عالياً، فصاح بركات:

ـ وهذا الزيتون المدوَّد لا نأكله.

فكادت تقع على قفاه، لولا أن رأت بركات يتناول صحن الطبخ ويدلقه على المائدة، فهرولت تنادي:

ـ يا أبونا، يا محترم، يا محترم.

فقال بركات:

ـ أذهبتِ؟ حسناً، قولي له إننا منتظرون.

ولكن بركات ورفاقه ـ وكانوا قد تفاهموا على اللعبة بغياب أبو عمشه ـ انتظروا عبثاً. ثم مدَّ بركات يده إلى صدره وتناول نايه، ودقَّ على المائدة ثلاث دقات. فسحَب من حواليه نایاتهم، وتلكأ آخرون. إلا أنهم لما سمعوا غيرهم ينفخون تشجعوا وسحبوا نایاتهم. ما عدا أبو عمشه فقد بقي مشدوهاً لا يفهم شيئاً. وانطلقت في جو الردهة الفسيحة موسيقى صاخبة، متنافرة الألحان، غريبة، تُصِمُّ الآذان. وتهوس أكثرهم عليها، وراحوا يقرعون البلاط بأقدامهم حيناً

وعِصِيِّهم حيناً، ويلوحون برؤوسهم كأنهم جماعة من المجانين أو القرود، حتى تعِبوا، فأمسكوا، وعلت احتجاجاتهم:

ـ دعونا نخرج من هذا الحبس!

ـ نريد الحرية!

ـ أرجعونا إلى الشوارع!

ـ أعطونا أتعابنا!

ثم سمعوا الصوت الذي يعرفونه فتهامسوا: هذا أبو الذقن. فقام أبو عمشه عن كرسيَّه يريد لقاء المدير، ولكن المدير تركه وصاح وهو يتظاهر بالبحث عن الخادمة:

ـ مريم! مريم! أين هذه الملعونة؟ من قال لك أن تشتري لهم هذا اللحم من هو هذا القصَّاب الـ.... (وتذكر المدير ذقنه وثوبه). خذي، هذه خمس ليرات، سليهم ماذا يحبُّون أن يأكلوا على العشاء!

فساد صمتٌ حائر مبغوت، إلا أبو عمشه فقد هتف بحياة المدير والدعاء له. فأسكته الكاهن بلمسة من يده، ثم نادى بركات برِقَّة. فأقبل بركات مرفوع الرأس جريئاً. فقاده المدير

إلى غرفته، وقام العُميان عن المائدة إلى الساحة يتهامسون، ويحاولون أن يفسِّروا عمل المدير، فتدخَّل أبو عمشه:

ـ أما قلت لكم إنه رجل قديس؟

فأخرسوه منتظرين عودة بركات. فلما جاء حاموا حواليه يطرحون عليه ألف سؤال وسؤال:

ـ أظننا أنه يريد طردك!

فقال آخر:

ـ يا ليت الطرد لي!

ثم ثالث:

ـ لا نخرج من هنا إلاَّ مجتمعين... ماذا يا بركات، ماذا قال لك أبو الذقن؟

ـ ما الذي غيَّره في ساعة؟

ـ تكلَّم... افتح فمك!

فظل بركات ساكتاً لا يحير جواباً. وكان يحاول أن يبتعد عن رفاقه، فيلحقون به، ويشدُّونه من سترته، ويلكمونه على كتفه ليقول كلمة، فأبى. خشبة لا فَمَ لها، ولا أُذُن، ولا إحساس.

وبات بركات ليلته تلك يعاني عذاباً غريباً يذوقه لأول مرة في حياته. كان يقضم اللحاف بأسنانه، ويدفن رأسه بالمخدة غاضباً على نفسه. كيف أخبره المدير بأن الحكومة أنعمت عليه بوسام مذهَّب تكريماً لخدماته في سبيل الإنسانية المعذَّبة، وبأن الحاكم سيأتي إلى المأوى يوم الأحد ـ بعد أربعة أيام ـ مع كبار الموظفين. فتقام حفلة يُعلّق فيها الوسامُ الثمين على صدره، وكيف وعَدَه بتسريحه من المأوى يوم الاثنين، بل فور ختام الحفلة، وتزويده بخمس ليرات ـ فضلاً عن بدل أتعابه المحفوظ في الصندوق ـ بشرط أن يكون هادئاً ويساعده على تهدئة رفاقه بعد الثورة التي أحدثها، وكيف قال له إنه يحبُّ الشجعان أمثاله، وإنَّه سيعلِّمه خطاباً يلفظه في الحفلة أمام الحاكم والموظفين وكبار المدعوين... فضعف بركات وأجابه بالقبول، فكان جباناً، وكان خائناً مثل أبو عمشه...

***

في الصباح وصل خبر الوسام إلى العُميان بواسطة أبو عمشه أولاً، ثم على لسان المدير نفسه، أعلنه عليهم ذيلاً لعِظة قصيرة، قائلاً إنَّها نعمة من نِعَم الله، وإنَّه لا يَستحقُّ هذه

النعمة، وإن الله هو الذي يُلهمه أن يعمل ما يعمل، فما هو إلا عبدٌ حقير من عباده، ثم طلب منهم أن يصلُّوا من أجله.

وبعد تناول الطعام وجه المدير مريم في طلب بركات إلى غرفته، فقادته إليها، فاستقبله بالترحيب، وباركه، ثم قال له:

ــ نبدأ اليوم بالخطاب. أمامك أربعة أيام لتتعلَّمه، أتكفيك؟ تأتي كلَّ يوم مرتين، قبل الظهر وبعده. أنت ذكيٌّ، يا بركات، وجريء، ولا تستحق أن تكون أعمى... ولكن هذه مشيئة الله. لنبدأ بالخِطاب. اسمع جيداً. أنا أتلوه عليك جملةً بعد جملةٍ، فتردِّد ورائي.

وتناول الورقة وأخذ يقرأ:

ـ سعادة الحاكم، سيداتي، سادتي، أبتِ المحترم.

ـ سعادة الحاكم، سيداتي...

ـ لأ. لأ. قف، هذا غلط. قُل من جديد:

سعادةَ الحاكم، أبتِ المحترم، سيِّداتي، سادتي.

... كانت تلك أول مرة يصعد فيها بركات إلى منبر الخطابة. وكان وسط رفاقه العميان على دكَّة من خشب

أقيمت مسرحاً، وقد لبسوا ثياباً جديدة أمر لهم المدير بها خصوصاً لهذه الحفلة. أربعة عشر شخصاً واقفون بلا نظام، يزحم بعضهم بعضاً وينحني بعضهم على بعض، والحاكم والمدعوون ينظرون إليهم ويضحكون ضحكة الشفقة على أحدهم يكاد يقع على الدكة لولا تعلُّقه بثوب رفيقه، وعلى آخر يقف مُديراً إليهم قفاه. فاضطر المدير أن يقوم عن كرسيه ويعتذر للحاكم ولسيِّدة جميلة بجانبه، ويذهب إلى عميانه مدمدماً ومنظماً صفهم. ولما انتهى، أسرَّ إلى بركات أن ابدأ بالخطاب. وعاد فقعد على كرسيِّه معرضاً صدره ومسرِّحاً لحيته، فقالت السيدة:

ـ صحيح، أجرك عظيم عند الله يا محترم. الوسام كان في محلِّه. فاكتفى من شكرها بابتسامة، لأن بركات كان قد فتح فاه:

"سعادة الحاكم، أبَتِ المحترم، سيداتي، سادتي.

"إنه لسعيد هذا اليوم الذي تشرفون فيه مأوانا، وكم كنا نود لو أن عيوننا مفتوحة ترى النور وتراكم شُموساً وبُدوراً تتألق في سماء هذه المؤسسة الخيرية. ولكنَّ الله،

سُبحانه وتعالى، لا يترك البائسين في بؤسهم وشقائهم. وكما أن السيد المسيح فتح عيون العُميان، هكذا أرسَل إلينا بدلاً منه حضرة مديرنا المِفضال الكلّي الاحترام (وحنى بركات رأسه وحنى العميان رؤوسهم كما علَّمهم الكاهن) المُحْسِن الكبير الأب رفائيل، هذا الشهم الغيور الذي ترونه بينكم.

"يا سعادة الحاكم!

"ونحن نعلم أكثر من الجميع بأن هذا الوسام الرفيع الذي أهديتموه إلى حضرة مديرنا المفضال علامة شرف ومجد. فأنا، بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن رفاقي العميان المساكين، أقول لكم ـ وتسمحون لي بذلك ـ إن الإنعام جاء في محله، لأن حضرة مديرنا المِفضال الكلي الاحترام (حنية رؤوس أخرى) هو لنا بمثابة الأب الشفيق والأم الرؤوم، يسهر على راحتنا ليل نهار، حتى لكأننا في بيوتنا، مُضحيًّاً بالغالي والرخيص في سبيلنا، فهو. والحقُّ يقال، رجُل الله وخادم الإنسانية المعذَّبة.

"يا سعادة الحاكم... لا... لا أيها الحضور الكرام..."

وأُرتجَ على الخطيب، فجعل يرفع يده إلى جبينه ويفركه والحضور يبتسمون، والمدير يتمزق في مكانه، ويعيث بلحيته شدّاً، ويُجيل عينيه هنا وهناك، ويتمتم ببقية الخطاب على غير انتباه منه. ولكن بركات لم يوفَّق، وبقي دقيقتين يردِّد: أيها الحضور الكرام... أيها الحضور الكرام... حتى تحوَّل الابتسام في القاعة إلى عاصفة من الضحك. فانحنى بركات على رفيقه يوسف عن يمينه ثمَّ على رفيقه فريد عن شماله، وهمس شيئاً في أُذن كلٍّ منهما. ثم رفع يده وصاح بصوتٍ مطمئِنٍّ: "أيُّها الحضور الكرام..."

فعاد الصَّمت إلى القاعة، وتهلَّل وجه المدير. والعطف يقول للحاكم:

ـ هذا اسمه بركات الراسي، أذكى عُميان المأوى!

وتابع الخطيب:

"... يا سعادة الحاكم، سيداتي سادتي، لا تتعجبوا إذا كنت قد غلطتُ في الخطاب. فصاحِبُ الخطاب هو الأب رفائيل. لا أنا..." امتُقِع لون المدير ونظر، فإذا الناس كلهم

عيون عليه. ولكنه تكلف ابتسامة، وأصغى إلى البقية:

"... أنا أعمى مسكين لا أعرف الفصاحة. وإذا كنتم تريدون مني خطاباً صحيحاً فأقول لكم: يا ضيعان الوسام! يا ضيعان النيشان!"

فردَّد العميان من ورائه صائحين بصوت واحد:

"يا ضيعان النيشان! يا ضيعان النيشان!"

استولت على السامعين، لدى هذه المفاجأة، دهشة عظيمة، فسكتوا ينظرون إلى العميان حيناً، ويستنطق بعضهم بعضاً بعيون كبيرة حيناً آخر. وغادر جيران الكاهن كراسيهم وحاموا عليه يسألونه: ما هذا الأعمى الوقح؟ ما هؤلاء الكلاب تُحسن إليهم؟ والمدير يُجيل حواليه نظرات تائهة بلهاء، والعميان يُتلِعون الأعناق، ويُرهِفون الأسماع، وترفُّ جُفون مَن له جفون مِنهم رفّاً متُسارِعاً، ثم علا الصِّياح بينهم، وهجم أبو عمشة على بركات، فإذا بالمدير يشقُّ الناس بكتفيه، ويسبق جاسوسه، فيصل إلى بركات ويصفعه صارخاً به:

ـ يا ناكر الجميل!

وأراد بعضم مساعدة رجل الله، لكن بركات تناول خصمه بذراعيه القويتين مدمدماً:

ـ هذا، أنت يا أبو الذقن؟ خذ هذه لِلحيْتك.

وبصق بصقة جبارة. فجاءت على الوسام الجديد اللمّاع. ثم:

وهذه الثانية لوِسامك!

فجاءت على اللِّحية الكَثَّة السوداء... خطأ لم يكن ذا شأن!

وتحوَّلت القاعة إلى ساحة عِراك، فما فيها إلا قرقعة كراسي وأسماء الله والصليب ومريم العذراء تختلط بالشتائم واللَّعَنات والهتافات:

ـ يتاجِرون بعَمانا!

ـ يجمعون الأموال باسمنا، ويبنُون القصور، ويأكلون مآكل الملوك!

ـ وتُعطيهم الحكومة النياشين!

ـ أين أنت يا أبو الذقن الملعونة! يا مَلاك الرَّحمة!

ـ تقدَّم! أين أنت؟...

ـ أين هو؟ أهو بين يديك يا فريد؟

ـ أهو تحتك يا يوسف؟

ـ يا حنّا، إلحق به! دُلني عليه! فتِّش عنه!

ومشى بركات يدفع الكراسيَّ، يتعثَّر، ينهض، يضرب عن اليمين، يضرب عن الشمال، والناس ينسحِبون مُتزاحِمين على الباب، وهو يصيح:

ـ أين أنت؟ أين أنت يا أبو الذقن؟

ولكنَّ المُبصرين أيضاً كانوا يفتِّشون عن المدير...

نوهَا

كانت سارة مُستلقِية على فِراشها وعلى وجهها اصفرار هادئ هو الاصفرار الذي يترُكه سَلْخ حياة عن حياة. وكانت القابلَة تلُفُّ بالأقماط كُتلة لحمية صغيرة. والنساء يتهامَسْنَ بعد هذه الخيبة تهامُساً مُريباً، وقد آثرَت إحداهن الانصراف. داعية بالكسر على يد فريدة، مُعلنة أمام الله أنها يد منحوسة لا تطلع عليها إلا البنات... وكانت فريدة في الواقع، تشعر بخجل، فأحبَّت أن تسرِّي عن نفسها، فأخذت تهدهِد الطفلة وتقول:

ـ يا ملعونة! نَبْضُها قويٌ وصوتُها يقدَح السَّقف. أُسكُتي.

ثم أدارت وجهها إلى الأم، فإذا هي تبكي وتقول بكلمات متقطعة مقهورة:

ـ يا ذُلّي، ويا ذُلَّ هذه الطفلة المسكينة! لعن الله الزواج! ولعن الله الأولاد! كان على أمي أن تخنقني حينما قلت لها أريد أن أتزوج سليمان. لعن الله الرجال!... قولي، قولي لي يا فريدة، قُلْنَ لي أنتُنَّ يا نسوان العالم، أهذا شيء من الله أم لا؟ هل ذهبت إلى دكان فيه صبيان وبنات فاشتريت بنتاً ولم أَشترِ صبيّاً؟ بعد يومين، يوم الأحد على الأكثر، يكون هنا. كيف أخبره؟ كيف أخبره؟

فتهيأت النساء لتعزيتها. ولكن القابلة لم تدع إحداهن تسبقها، فصاحت بالأم:

ـ أُسكتي! بس! بلهاء أنتِ مِن جدّ. ضعيها في عينيه وقولي له: هذه بنتك، وليتجرأ أن يمسها أو يمسك!

واكتسى وجه فريدة الهيبة التي تألفها القابلات، وجعلت تهزُّ برأسها وتقول:

ـ امسحي دموعك، لا أريد أن أراك تبكين بعد الآن. لا أسمح لك بالبكاء! خذي بنتك وأرضعيها، ونامي، واستريحي. أفهمت؟

وكانت الأم شاردة الفكر فكأنها لا تسمع. فحلا للقابلة الكلام، وعنَّ لها أن تمثل دور سليمان، رفعت كتفها اليسرى إلى أُذنها ومدت يدها إلى موضع الشاربين ـ وكان عندها منهما بوادر كافية ـ تفتلهما وتتمشى، وتنظر بطرف عينيها يميناً وشمالاً، وتضرب خيال الطربوش بكفِّها إلى وراء ثمَّ ترده إلى أمام، مسرورة، معجبة بإتقانها التمثيل. حتى إذا نال منها التعب رمت كَفَلَها الرَّجراج على كرسي مستغرقة في الضحك، ولكنها انزعجت حين لم تر واحدة من الحاضرات تشاركها ضحكتها، فعادت العقدة إلى حاجبيها، وساد الغرفة صمتٌ طويل لا يقطعه إلا صياح الطفلة كمواء هرة في ليلة سوداء.

كان سليمان دُرَّة، قبل أن يدخل الشرطة، من أولئك "القبضايات" الذين تمتعوا في حقبة من الزمن بمجد عريض. إلا أنه لم يبق له من ذلك المجد إلا ذكريات ما يزال، وهو في

الوظيفة، يعتز بها ويرددها على زملائه وأصحابه كلما شرب كأساً. وكره البنات من خصائص القبضايات، فهن عندهم آلتان: آلة لذَّة وآلة عار، والثانية نتيجة حتم للأولى. أما النساء الفاضلات فلا وجود لهن في ظنِّهم تحت قُرص السماء. ولولا الحياء لارتاب سليمان بامرأته. وقد ضربها ذات يوم ضرباً موجعاً لأنها ذهبت إلى الدكان لشراء علبة سردين ماظة لكأسه وتأخَّرت. والقبضاي القبضاي من لا يلد إلا صبياناً يعشقون بنات الناس. أما أن يلد بنات ويأتي أولاد الناس فيعشقونهنَّ، فأمرٌ أهونُ منه الموت وزلزال الأرض!

وكان سليمان مُسافراً تلك الليلة في القطار مع زميله يوسف العزّام إلى دمشق لمطاردة شقيٍّ قيل إنه التجأ إليها واختبأ عند نسيب له فيها.

وكان في مثل هذه الحالة لا ينفكُّ عن الكلام على الشقيِّ، كيف يهجم للقبض عليه ولو كان مثقلاً بالقذائف، وعلى مغامراته السابقة وحوادث بطولته. ولكنه كان مشغولاً هذه المرة عن الدنيا كلها بما تضع امرأته.

ـ يا يوسف أفندي، كان يجب عليَّ أن أبقى في بيروت. تركت امرأتي وقد بدأت تُحسّ.

ـ صبيّ إن شاء الله، مع سلامتها، يا سليمان أفندي. نم. نم أنا أموت من النُّعاس!

وأرخى يوسف رأسه على كَتفه، واستسلم إلى النوم على هدير القطار. وأحب سليمان يحذُو حذوَه، ولكنه ما كاد يفعل حتى عاد فرفع رأسه وقال:

ـ وأنت، كم ولداً صار عندك، يا يوسف أفندي؟

فانتبه يوسف وأجاب بفخر:

ـ ثلاثة صبيان!... وإذا جاءتك امرأتك ببنت، إذا وصلتَ إلى البيت وطلَعَت في وجهك توها[1]؟!... أتعرف ماذا يقول المثل؟ المثل قال، لا أنا ولا أنت. لعن الله البنت! البنت مصيبة في بيت أهلها، ومصيبة عند زوجها، ومصيبة إذا تزوَّجت، ومصيبتان إذا لم تتزوَّج!

***

[1] كلمة تُطلق على البنت على سبيل السخرية.

كانت الصدمة قاسية على سليمان. أخذ الخبر على عَتَبة بيته فأبى الدخول، وقفل راجعاً فقضى بقضي نهاره في الوظيفة غاضباً، شاتماً، رافساً مجرماً ساقه القدَر إليه فصبَّ عليه كلَّ نقمته. وفي المساء تنقَّل في المقاهي ساعة، ثم صعِد إلى بيت من بيوت المواعيد السريّة يعرف صاحبته ويُخفي أمرها عن السُّلطات لقاء مكآفات من لحم ودم، فشرب العرق، ورأى صاحبه بين ذراعَي امرأة.

وما صحا من نومه وسُكْره حتى عادت عُقدة حاجبيه وبلاطة اليأس على صدره، وكأنَّ سليمان الأمس غيره اليوم. ولو لم يتغيّر فيه إلاّ وقفة طربوشه لكفى الناظر إليه أن يُنكِره. فقد تركه ينزل في رأسه كالطنجرة، وترك شرَّابته تتفرَّع من قُدّام، بعد أن كانت تنحني وراء أذنه مع انحناءة الطربوش بأناقة وزَهْو، ونكَّس بصره إلى الأرض، يبحث فيها، عند كل خطوة، عن أمله الضائع.

وأمضى نهاره الثاني أيضاً بعيداً عن البيت، وبعيداً عن رفاقه في العمل ما استطاع، هارباً من مُمازَحاتهم. كانوا يتسابقون إلى ابتكار ما يُؤذيه من الكلمات والحكايات

لمعرفتهم بكُرهه البناتَ، حتّى أحرجوه فقذفَهم بخيزرانته، فجاءت على كَتِف يوسف أفندي، وانفتل خارجاً وأبى أن يلمَّها عن الأرض. فانتظروه حتّى توارى، فأخذوا يُقهقِهون.

وكان في نيَّة سليمان أن يبيت ليلته الثانية في الخارج، ولكنَّه لم يجد عند صاحبته شريكةً لسريره، فانتظر ساعة، فأغلقت الدنيا في وجهه، فقام يتمشّى على الأرصفة، فقادته قدماه ـ وكأنَّهما تقودانه عفواً ـ فلم يرَ نفسه إلاّ على عتَبَة منزله، فدخلّه.

نام سليمان كالقتيل لِفرط ما تعِب في الليلة السابقة. وقد استيقظت بِنته مرَّتين فأَرضعتها أُمها، وهو يَشخِر غير شاعرٍ بصوت ولا حركة.

إلاّ أنَّ الطفلة أفاقت مرّة ثالثة تصيح صياحاً مُزعِجاً ووالدتها تقدِّم إليها النَّدي الأيمن ثم الثدي الآخَر، وتهزُّ سريرها عبثاً. فتململَ سليمان ونفخ وكأنَّه يتكلَّم في نومه:

ـ سكِّتي بنتك! سكتِّيها وإلاّ قمتُ وخنقتُها لكِ!

فنظرَت الزوجة إليه على ضوء القمر المنسلِّ من النافذة، وارتسمَت على وجهها علامة اشمئزاز. ولكنَّ الخوف تغلَّب

عليها فخفق قلبها بعُنف، وعادت تبذُل الحِيَل لإسكات الصغيرة وتغنِّي لها، فاختلط الغناء بالصياح.

ـ أنغماتُك فوق نغماتها؟ سدِّي فمك وفطسِّيها!

وكان سرير الصغيرة بين فِراشَي الزوجَين، فأدار سليمان ظهره إليه. وما كاد يُغمِض عينيّه حتى أرسلَت صيحة اخترقت لِحافه وثقبّت أذنّيه، فجعل يلعن ويسُبُّ. وخطرَ له أَن يلبسَ ثيابه ويذهب فينامَ بقيَّة الليلة خارجاً، غير أنَّ الكَسل أقعده، فقذف بالغِطاء وصاح بزوجته:

ـ أما انتهينا مِنكِ ومنها؟

فتذكَّرت سارة كلام القابلة فتشجَّعت وأجابت ببرودة:

ـ يجب أن تتعوَّد. أتظنُّ الصبيَّ لا يصرخ مثل البنت؟ بنتي هي كما هي بنتك. ناولني المصَّاصة.. فتِّش. حرِّك يدَيك. أُنظرها تحت السرير.

فمدَّ يدَه يلتمِس المصَّاصة. ولَمّا وجدَها، دَهِش مِن نفسه كيف أطاع امرأَته وفعل فيه كلامُها الهادئ. وانقلب الموقف بينهما فجأة، فإذا هي القويّة وهو الضعيف.

وطلبَت إليه أن يضع المصَّاصة في فم الطفلة، فقعد وجرّ السرير إليه، والطفلة تصرُخ، فألقمها المصَّاصة. فرفعت سارة رأسها تُحِدُّ النظر إليه وتتمنّى لو كان النور كافياً لتراه جيداً يعتني بابنته. فريدة كانت على صواب: هل يتحوَّل الدم إلى ماء، وهل يكره أحد ولده صبيّاً كان أو بنتاً؟

وفرحت الأم، وجمدت عيناها على السرير تنتظر أن تسكُت الطفلة على يد أبيها. وكانت تفرُك يدَيها وتقضم شفتيّها وتهمُّ بمساعدة سليمان، ولكنَّ الصغيرة لم تسكُت. وكأنَّها كانت تريد نكاية والدها، فارتفع صوتها وامتدَّ نَفَسها فيه، وانفرجَت شفتاها وطرَدتا المصَّاصة، فأعادَها سليمان، فطردتاها، فطلبَت إليه امرأته أن تقوم عنه بالمهمَّة فرفض بعناد:

ـ أُتركيها! أُريد أن أرى أتسكتْ أم لا؟

وأحسَّ قوَّته على زوجته من جديد، فأَدنى السرير منه وراح يهزُّه بشدَّة، ويضغط بالمصَّاصة على فم ابنته وهي تَبصُقها وتعوي.

واستمرَّت المصادَمة بينهما دقيقتين طويلتين. وأخيراً صاح بامرأته:

ـ يا بنت كذا وكذا، هذه المخلوقة ليست منِّي!

ـ معكَ حقٌّ، حملتُها لك من بيت أبي. أليس كذلك؟

ـ بل أنت امرأة فاجرة. ماذا تصنعين في الدكاكين؟ لا أدخل البيت يوماً وأراك فيه...

ـ كلُّ هذا لأنِّي وضعتُ لك بنتاً؟ خَف ربَّك يا سليمان! خَف ربَّك!

وغطَّت وجهها وأجهشت باكية. ولبثَت مدة، لا تعرِف مداها، غارقة في بُحران من الأفكار لا أول له ولا آخر.

وفجأةً تذكَّرت يوماً تخاصمَت فيه وزوجها، وكانت حُبلى، فرفَع يده وضربها ضربة أرادها على بطنها، فاتّقتها بصدرها، فهدَّت أضلاعها هدّاً. وتلمَّست سارة موضع الضربة وكأنَّها ما تزال تحسُّ بأَلمها.

"لو أصابت تلك الضربة هَدَفَها لأجهضت وماتت البنت!"

لمعت هذه الفكرة في ذهن الأم لمعاناً غريباً، فجعلت تطردها فترتدُّ، ثم تطردها فترتدُّ، فتذُوق بين طردها وارتدادها حلاوةً مُرَّةً في قلبها ومرارةً حُلوةٌ "... لماتت البنت وتخلَّص الأب من صياحها وتخلَّصت الأم من غضبه... مَن يدري؟ ربَّما كان الموت خيراً لها من الحياة في كَنَف هذا الرجل... ولكن لا، لا. يجب أن تحيا. يجب أن تحيا غصباً عنه. ها هي تواصل صُراخها. فَلْتثقبُ أُذنيه! فَلْتنتقِم لأمها منه! فليْسهرَ عليها حتَّى تنام! أَمَا هي بنتُه كما هي بنتها؟"

ولكنَّ رؤيا الضربة عاودَت الأمَّ المحمومة فرجعت الفكرة نفسها قويَّة هذه المرَّة، جبّارة، عنيدة، لا تتزحزح: "لو أصابت الضربة بطنَها لماتت البنت... لماتت البنت!"

ـ أتسكُتين الآن؟

غمغم الأب بهذه الكلمات وقد ضغط بطن كَفِّه على المصَّاصة وفم الطِّفلة، وجعلَ من إبهامه وسَبّابته كَمّاشة على أنفها الصغير، وظلَّ يضغط مُحدِّقاً إلى زوجته بعينين زجاجيتين. وفي أثناء ثانية من هذه الدقيقة التي خُيِّل إليه أنَّها دهر، أوشك أن يسحب يده، ولكنّه لم يسحبها، لم يستطع

أن يسحبها، وبقي شادّاً حتَّى أيقن بأنَّه تمَّ له ما أراد. وحينما رفعها أحسَّ بها ثِقْلاً، وأحسَّ على أصابعه يُبُوسة وخَدَراً فكأنها كانت على قطعة من جليد.

وكانت الأم قد فرغت من الصراع الهائل بينها وبين الرؤيا، فأزاحت اللحاف تتنفَّس، فكان سرورها بسكوت الطفلة على يد والدها عظيماً. فتهلَّل وجهها وأدنتِ السريرَ منها. ثمَّ استسلمَت إلى النوم.

أمّا سليمان فردَّ عليه اللحاف وأدار ظهره إلى السرير. وأحب أن يمتحن نفسه فيعرف بمَ يُحسُّ بعد فَعْلَته، فوجد أنه لا يحسُّ بشيء، إلا برجفة في أصابع اليد التي قامت بالعمل، فشدَّ عليها بأصابع اليد الأخرى، ووضع كفَّيه بين فخذَيه وأغمض جفونه. ولكنَّ النوم كان يهرُبُ من عينيه، فما فيهما إلا نار مؤذية وحاجة إلى الانفتاح. فتململ... ثمَّ خُيِّل إليه أنه يسمع صياح بنته يملأ الغرفة ويخترق اللحاف: واع ويع! واع ويع!... فأدار وجهه صوب السرير، ثمَّ رفع رأسه فعلَّق بصره بالطفلة، وأَرهف سَمْعه... فلم يَسمع شيئاً. حينئذٍ تجلَّت له حقيقةُ ما فعل، فضجّ دماغه، وفتح فمه كالأبله. لا، لا! هذا

هذا حلم مزعج، إنَّ بنته ما تزال حيَّة تُرزَق، إنَّها ستعود إلى الصياح.

وحملق بالسرير مرة ثانية، وحبس أنفاسه ينتظر.... ينتظرها أن تصيح، أن تُزعجه من الآن إلى الصباح، ومن الصباح إلى المساء. ولكنَّ الصمت ظلَّ مخيماً، صمتٌ ثقيل ينشر في الجو ضغطاً خانقاً كالهجير في قلب تموز... إلاَّ خفقات قلبه تتضاعف وتزاحم أنفاسه. فقام على الأربع إلى السرير، ومدَّ أنفه يفتَّش عن لهاثها، فلم يجد أثراً له، ويده إلى خدها وقَرَصه فلم تُبدِ حركة ولم تُسمع نأمة. فاشتدَّ الارتجاف في كفِّه، ثمَّ تساقطت على ذلك الخدِّ الصغير البارد، فكان تساقطها مداعبة لطيفة على غير قصد منه.

وأمضى سليمان ساعة يتقلَّب ويحاول طرد صياح بنته من دماغه فلا يقدر، حتى لاح الفجر، فارتدى ثيابه. وخرج دون أن يغسل وجهه. وشدَّ ما كان فرحُه حينما وصل إلى الباب ونظر قبل أن يُغلقه، فإذا زوجته ما تزال نائمة.

انصرف إلى عمله بهدوء غريب كأنه لم يأتِ أمراً، بل كأنَّ سارة لم تلِد بَعْدُ. ولكنَّ الاضطراب لم يلبَث أن عاوده،

وعاوده "الواع ويع"، فأخذ ينفُض أُذنيه بيدَيه. ثم مشى إلى غرفة المدير يقدِّم رجلاً ويؤخِّر رجلاً، حتى رأى نفسه أمام الباب وهمَّ بقرعه، ثمَّ أمسك وأدار ظهره، ثم رمى سيكارته وداسها بعُنف كأنَّ له عليها ثأراً، وتهيّأ لقرع الباب، فإذا به ينفتح في وجهه ويُطلُّ منه المدير.

ـ خير إن شاء الله، يا سليمان أفندي!

فلم يتجاسر على رفع عينيه إلى عيني المدير فكأنه يخشى أن يسرق منهما سرَّ جريمته، وقال متلعثماً إنه جاء يسأل هل من مهمة يُراد إسنادها إليه ـ وكان سليمان يريد هذه المهمة في خارج المدينة ـ فأجابه المدير بأن عليه الراحة، فالوظيفة تطلبه قبل أن يطلبها. فانصرف يتمشَّى في الرواق، وينظر من النافذة إلى الشارع ليرى هل يأتي أحد من جيران البيت بخبَر إليه، واتَّفق أن مرَّ به زميله يوسف فسأله:

ـ كيف حال البنت، يا سليمان أفندي؟

فخرج سليمان من هدوئه ولمعت عيناه بالغضب:

ـ ألا تزال تلحقني بالبنت؟

ولكنَّ يوسف لم يفهم، فتابع سُخريته:

ـ أبو أي شيء تُناديك؟ أبو حنّة؟ أبو منّة؟

ـ قُم من دربي! رُح من وجهي!

فلم يبتعد، بل دنا منه وربَّت كَتِفه، فآذته هذه التربيتة وحاول أن يحيد.

ـ كبِّر عقلك يا سليمان! وخذ المسائل بطُول البال. هل غضبَ عليَّ؟ إن البنت مثل الصبي. الولد عزيز مهما يكُن. سترى غداً أنك ستحبُها...

فقاطعه سليمان مبغوتاً:

ـ ومن قال لك إنني لا أحبُّها؟

ـ كنتُ على يقين من ذلك. وستحبُّها أكثر. ستحبُّها وتفضِّلها على صبيان الأرض كلِّهم. قل لي أجميلة هي؟ سأذهب يوم الأحد إلى زيارة بنتك فأخطبها لمنير. أتعرفه؟ منير اليوم في الخامسة من عمره. حينما يصير في الخامسة والعشرين تكون هي في العشرين، في عزِّ زواجها... صدِّقني، يا سليمان، لا شيء في الدنيا مثل الأولاد. الحياة بلا أولاد

(وقلَب شفتيّه) لا تساوي قِشرة بصلة. سترى غداً أن حياتك تنحصر فيها. تفكّر بها في الشغل، تفكّر بها وأنت تأكل، تفكّر بها وأنت قاعد وقائم... تفكّر بها وأنت نائم.

وكان لكلمات يوسف على سليمان وقع السيِّاط. فأحبَّ أن يتخلَّص منه بحيلة، فلم يوفَّق، لأن يوسف كان ـ ككلِّ الآباء ـ يشعر بسعادة وفخر ما بعدَهما سعادة وفخر في التحدُّث عن أولاده. فوضع يده مرة ثانية على كَتِف سليمان، ولكن سليمان لم يستطع تحمُّلها هذه المرة، فنزعها متكلفاً ابتسامة اعتذار، وتابع يوسف:

ـ أتصدقني يا سليمان أفندي؟ منذ رُزِقت الولد الأول لا أعرف المقهى ما هو. رأساً من الشغل إلى البيت. وستكسر بنتك رأسك فتكون مثلي، بنتك اليوم كتلة لحم لا يظهر منها شيء. اصبر حتى يصير عمرها سنة، حتى تمشي وتبدأ الكلام...

وكان يوسف يفكّر بأولاده ويراهم أمامه يلعبون ويُزقزِقون، فيتدفق حبُّه وحنانه على وجهه.

ـ أسمراء هي أم بيضاء؟.. ما لك ساكت؟ ها! ها! ابتسم.

ـ سمراء؟ لأ. لأ. بيضاء؟... أظُنُّ أنها بيضاء.

وأوأ سليمان بهذه الكلمات رافعاً إلى مُحدِّثه عينين تقذفان بالشرر، ولكن يوسف كان خالي الذهن، فأراد أن يُرسل آخر سهم من سهام دُعابته، فقال:

ـ أهكذا تُرخي لِحيتك؟ لا ينقصُ من أجل هذه التوها إلا أن تنتحر!

دُفنت الصغيرة بعد الظهر في المقبرة القريبة. إن موت طفلة ابنة يومين كموت قطة في البيت. مع هذا الفارق أن الناس يقولون "ملاك عاد إلى السماء". وكان الرجال يتقدمون لتعزية سليمان القاعد في زاوية البهو، مردِّدين العبارة المألوفة: "العوض بسلامتك!" فيُجيبهم: "العوض بسلامتكم!" بحسرةٍ في عينيه، وهيئة ظنَّها الكثيرون لُعبة يلعبها عليهم، لمعرفتهم بكُرهه البنات، حتّى أن جاره أبو سعيد التفت حواليه بعد أن صافحه، ثم همس في أُذنه:

ـ أشبعتنا تمثيل روايات! اضحك في سِرِّك. بنت وماتت، مع ستِّين ألف سلامة!

ثم نظر إلى وجه سليمان يتوقع إشارة موافقة، غمزة أو طيف ابتسامة، ولكن وجه سليمان ظل كالنُّحاس، فسوَّى أبو سعيد طربوشه، وفسح في المجال لمن يليه.

التمثيل؟.. لقد فطن سليمان أن عليه أن يمثل رواية. ذكَّره أبو سعيد. فأخذ يتظاهر بأنه غير متأثِّر، ويُكسِب وجهه ولهجته شيئاً من اللامبالاة. غير أن حقيقته الضاجَّة في صدره كانت تخونه، ويعود "الواع ويع" إلى أُذنيه فينقُضهما، فيقطِّب جبينه، ويحني رأسه بانكسار.

وحينما انصرف المعزُّون والمعزِّيات بقيت القابلة وحدها بين الزوج وزوجته. وكانت الأم تشدُّ السرير الفارغ إلى صدرها وتشُمُّه وتقبِّله وتبكي. فعطفت عليها فريدة وتناولتها بين ذراعيها تقول:

الحقيقة، يا سارة، أن البنت وُلدت ضعيفة، ممصوصة، مريضة. ولم أشأ أن أخبرك بذلك لئلا أَغُمَّك. أتذكرين زيارتي لك بعد ظهر أمس؟ كنت مديرة ظهري لك، فتناولت هذه الطفلة بين يدي، ونظرت إلى عينيها، فقلت حالاً: هاتان العينان ليستا للحياة!

ففتح سليمان أُذنيه وكلَّ جارحة من جوارحه لهذه الكلمات. أصحيح أنها كانت مريضة؟ أصحيح أنه لم يقتلها بيده؟ ودنا من فريدة، وتحرَّكت شفتاه بأسئلة كثيرة، ولكنه لم يَفُه بشيء... وبدلاً من أن يهدِّئ كلام القابلة روع الأم زاد في نار قلبها اشتعالاً فصاحت:

ـ ولمَ لم تخبريني؟ لمَ لم تقولي لي إنّها مريضة؟ كنتُ استدعيت لها الطبيب. أنتِ قتلتِها!

وتناولَتِ القابلة من ساقها وشدَّتها، فكادت فريدة تشتُم، إلاّ أنَّها فطِنت إلى أن سارة ستلد في السنة الآتية: وأن رزقها يوجب عليها السّكوت، فتكلَّفت الابتسامة، وابتعدت تاركة الثكلى غارقة في الدموع.

وأبتِ القابلة أن تخرج من البيت دون أن تنتقم، فدنت من سليمان على الباب وأسرَّت إليه:

ـ أصدَّقت أنها كانت مريضة؟ البنت كانت مثل الحصان! أنا أراهن بمليون ليرة على قرش مقدوح أن أمها فطَّستها في الليل! تكون قد أعطتها ثديها ونعِست فنامت فوقها. ألم ترَ وجهها كيف كان أزرق مثل النيل؟ العوض

بسلامتك يا سليمان أفندي!... حزين؟ في حِفْظ القرد بنات الدنيا! ارتحت منها ومن "الواع ويع".

وخرجَت، وبقي سليمان ينفُض أُذنيه، ثمَّ دخل غرفة زوجته، فإذا هي ترفع رأسها وتصيح به:

ـ أمسرور أنت الآن؟ ها! ماتت! ماتت من دعواتك عليها!

ـ أُسكتي! أسكتي! أتريدين أن أقول لك ماذا أخبرتني فريدة؟ ولكنَّ الأم لم تشأ أن تسمع شيئاً، فتابعت:

ـ ماتت! ماتت! وستموت أُمُّها وتلحق بها. أنت يليق بك زواج ونساء وأولاد! ها! ها! هاّ أنا أتوجَّع وأرى الموت بعينيَّ ألف مرة، وأنت بعيد، وترجع إلى بيروت ولا تدخُل بيتك لترى امرأتك: ميتة، حية، متعافية، أم مطعونة في قلبها... أدخل لترى على الأقلِّ بنت، بنتك لحمك ودمك، فلِذّة كَبِدك! الله الله على الرجال! كان القهر يحتقن في قلبين فأُرضع تلك الطفلة حليباً مسموماً. حينما مددت يدك آخر الليل ووضعت لها المصَّاصة وهززت سريرها قلتُ في نفسي: أشكرك يا الله! كثَّر الله خيركِ يا مريم العذراء! قمتُ الصبح، ففتَّشتُ عنك، فلم أجد أحداً. هل نمت على أنَّك كنت إنساناً دقيقتين؟.... مسكينة!

أرأيت كيف نامت على يدك؟ أبوها! هي أحسَّت بالحنوِّ قبلك! يا حبيبتي! يا حياتي! لو شبعتُ منك! لو عرفتُ كيف متِّ... لو سمعتُ لكِ صوتاً! أزعجَتْك بصراخها، أليس كذلك؟ أين هي الآن لتصرخ؟ أين هي لتصرخ؟

فاضطرب الأب كأنَّ خبطة جاءت على رأسه. وعاد إلى أُذنيه صياح بنته يعلو ويشتدُّ ويمزّق أُذنيه:

ـ واع! واع! وييع!

فجعل يدور على نفسه ولا يتجاسر، أمام زوجته، على رفع أصابعه إلى أذنيه للتخلص من الصوت. ثم أحسَّ وكأنَّ الصوت يطلع من أعماق قلبه، ويخترقه كالسكاكين، ويضجُّ في رأسه حتى يقلقه، فخرج من الباب يتنفس الهواء الطلق.

كان مأذوناً بقية نهاره، ولكنه أحبَّ أن يذهب إلى العمل، فما دخل الدائرة حتى رأى زميليه يوسف أفندي وسمير أفندي يسوقان فتاة بغلظة، فتاة هزيلة، مترملة بثياب عتيقة وسخة. ولم يتورّع يوسف عن لكمها على كتفها. فدنا سليمان وصاح به:

ـ لماذا تضرب هذه المسكينة هكذا؟

ـ سارقة! سارقة! كانت تسرق مال سيدها وتعطيه عشيقاً لها. أرأيتَ هذا الوجه؟ أهذا وجه عشق؟

وهمَّ يوسف بضربة ثانية، وفي ظنه أن أقنع سليمان، ولكن سليمان أمسكه بذراعه وهزَّه، وتفرَّس في وجهه قائلاً:

ـ ألا تعرف أن القانون يمنع الضرب؟

فحملق يوسف وسمير في سليمان، وقال يوسف بضحكة استهزاء:

ـ كان يجب أن تتذكَّر القانون حينما كنت تدقُّ الموقوفين بالبوكس على رؤوسهم، أو تدمي أرجلهم بقضيب الخيزران!

ورجع يوسف إلى الفتاة فرفسها بلا شفقة صائحاً:

ـ خذي هذه إكراماً للذقن الأفندي!

فجاءت الرفسة على قفا المجرمة. فاعوجَّت لها، ولم تحفل بها كثيراً.

ولكنَّ سليمان أحسَّ بحذاء يوسف الضخم يرفس قلبه!

ولّما وصل إلى البيت رأى امرأته ناثرةً ثياب بنتها تناجيها وتبكي فلم يتوجَّه إليها بكلمة على شدة رغبته في أن يقول لها أشياء، ولم تفاتحه هي بحديث. ثم أوى كلٌّ منهما إلى فراشه دون عشاء ساكتين.

ومع الفجر استفاقت الأم على قرقعة في المطبخ، فصاحت مذعورة، والتفتت إلى فراش زوجها، فلم تجده، فنادته، فأجابها صوت هادئ حلو:

ـ أنا هنا.

ـ ماذا تعمل في المطبخ؟

فلم يجبها، لكنّه أطلَّ من الباب بعد قليل حاملاً بيديه خشبتين متعارضتين، فنظرت الأم، فإذا هما صليب، فقال:

ـ هذا لبنتنا يا سارة، ليس على قبرها شيء.

وبقي الأب غارساً نظره في الأم، بينا الصليب يغمرُ سرير الطفلة الفارغ الباقي على الأرض بخياله الكبير.

بهيّة

كان اليوم الذي يذهب فيه ميخائيل إلى مركز عمله، ولا يرى وجهاً جميلاً على الطريق، يومَ نحس: تملأه السُّويداء، والسآمة، والشتائم.

فإذا خرج من منزله إلى محطّة الترامواي، رفع أنفه إلى الحافلة ينظر من فيها، فإذا لاح له فسطان قفز إليها، وإلا انتظر التالية.

أما ذلك الصباح فكان صباح خير ونوراً ما كاد يصل إلى المحطة حتى وقفت حافلة فيها سيدة، وكأنَّ بينه وبينها

ميعاداً، فصعد وقعد إزاءها. وأيقن من النظرة الأولى أنَّه أمام امرأة من الطبقة النبيلة في المجتمع، على رأسها المدور الأسمر قبَّعة لها ريشة صغيرة تنحدر على الصّدغ الأيسر، وثوبها أخضر غاية في البساطة، ولكنَّه أنيق يلتفُّ حول خصرها عارضاً نحافتها، منشقاً من فوق عن عُنق ناصعة لا أثر عليها للمساحيق، ومنتهياً من تحت إلى ساقين دقيقتين منسجمتين مضمومتين عند الركبتين بحياء، ولم يستطع، بادئ بدء، أن يتبين وجهها لأنها كانت تديره إلى الشارع ملتصقاً، أو يكاد، بزجاج النافذة.

كان المنهاج معلوماً: تناول علبة اللفائف وأشعل عود كبريت، فلم تلتفت. فأشعل الثاني والثالث، فلم تلتفت، فكان لابد من إيصال الرابع إلى اللفافة. ثم عمد إلى المادة الثانية، فوضع ساقه اليمنى فوق اليسرى، وضرب حذاءه بحائط الترامواي، فلم تلتفت. فأنزل اليمنى ورفع اليسرى فوقها، فلم تلتفت. فعمد إلى المادة الثالثة فمدَّ يده وكشف عن كمه متظاهراً بالنظر إلى الساعة، ومسح شعره. وسوَّى ربطة عنقه، وصنع مائة حركة وحركة، والسيدة جامدةٌ لا تحيد أنفسها عن زجاج النافذة.

فاستولى عليه الغضب، وأسف على ضياع القرش الذي دفعه فرقاً لركوب الدرجة الأولى، وعلى ضياع امرأة جديدة علَّل نفسه بضمها إلى لائحة نسائه. ولما ترجّلت من الترامواي وقف على الرصيف واضعاً يديه في جيبي بنطلونه، ورافعاً أنفه إلى النافذة، فإذا التفاتة منها، وإذا لها عينان نجلاوان، سوداوان، صافيتان، ساذجتان، انطبعتا في نفسه انطباعاً، وأحسهما طول ذلك النهار نجمتين متألقتين عالقتين بجبينه.

وفي الأيام التالية كان يركب الترامواي على خط بيته وعمله، وسائر الخطوط أحياناً، لعله يظفر بتلك المرأة المجهولة، فذهبت جهوده عبثاً، حتى انقضى على ذلك أسبوع ونيف، فنسيها وشبك سواها بحباله.

ولكن، حدث ذات ليلة أنه تأخر في سهرة عند أقربائه، فوقف ينتظر الترامواي، وطال به الانتظار في المحطة، لأن بين الحافلة والحافلة، بعد الساعة التاسعة مساء، ربع ساعة، فأخذ يتمشى في الشارع على غير هُدى، فقادته قدماه إلى باب أحد المراقص، فدخله هازاً بكتفيه: "لا بأس، ما دمتُ قد تأخرت "ــ وكان قد مضى عليه أكثر من شهر لم يدخل مرقصاً ـ لعلَّ فيه شيئاً جديداً".

رفع نظره إلى المسرح، فإذا سمراء على نور بنفسجي ترقص رقصة البطن، وكان يحب هذه الرقصة ويؤثرها على غيرها من الرقصات البريئة، فحمل كأسه، ودنا يطلب مقعداً عند المسرح فلم يجده، فبقي واقفاً.

وفجأة التقت عيناه وجه الراقصة. فكادت الكأس تقع من كفه. ماذا؟! أهذه هي المرأة التي رآها في الترامواي؟ أهذه هي السيدة الشريفة الخجلة؟ هنا، هنا، راقصة عارية، ماجنة، لا تتحرج في الظهور بذلك المظهر؟!

وابتسم ابتسامة ظفر وخيبة معاً، أما الظفر فلأن المرأة التي اشتهاها وحسبها فوق متناول يده أصبحت ملكه في أي ساعة شاءها. وأما الخيبة فلأنه وعد نفسه بأكلة فاخرة فوقع على فتات مائدة حقير.

وكان صاحب الملهى صديقه يستشيره في هذه الراقصات قبل الإقدام عليهنَّ، فيقوم هو بالوساطة ـ ولا ريب أنها مأجورة من الطرف الآخر على الأقل، أو أنها لذّة عنده خاصّة ـ فجاءه بابتسامته المندلقة على بطنه وقال:

ـ ميمي؟ أعندنا عزيز عليك يا ميخائيل؟ الليلة إذا طاب لك.

ثم ذهب إليها ـ وكانت قد نزلت عن المسرح وقعدت على كرسي تنظر أحداً يدعوها إلى كأس ـ وهمس في أذنها همسة، وغمز ميخائيل بطرف عينه الصغيرة الخبيثة وتوارى...

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل كان ميخائيل يقفل باب الغرفة عليه وعلى ميمي في الفندق الذي تنزل فيه.. وما كاد ينفرد بها حتى أخذ يقهقه ويقول:

ـ ميمي! ميمي! ها! ها! ها!

وكان سكران، وكانت سكرى، فقهقهت معه دون أن تفهم:

ـ ها! ها! ها!

ـ ها! ها! ها! ها! ها!

هو من هنا وهي من هنا حتى كادا يزلزلان أركان الغرفة، وسمعا الخادم يتقلب على فراشه وقد استفاق من نومه.

ـ ميمي! ميمي!.

ـ وأنتَ، بماذا يجب أن أناديك؟

ـ أنا، ناديني بما شئت: شيطان ـ ملاك؟ حمار. بل حمار حمار.

فعادت إلى القهقهة، فاقترب منها ــ لا كالحمار، بل كالوحش ـ وأخرسها بقبلة قوية، وعصرها بين ذراعيه، ثم تراجع وضغط زرَّ المصباح الكهربائي، فساد الغرفة ظلامٌ دامس، فزحف إليها ماداً يده أمامه، فوقعت على ثديها، فجذبها منه إلى الأرض. فانطرحت وانطرح إلى جانبها وكلاهما يضحك ولا يحسُّ بألم الوقعة ولا ببرودة البلاط لشدّة السكر... وإذا كان السكر يذهب بالعقل أكثر الأحيان فإنه في بعضها الآخر يحفظ للإنسان وعياً داخلياً غريباً لبعض الأشياء، فإذا هو يفهم بإشارة ويحسُّ من نسمة فهماً وإحساساً لا يتيسران له وهو صاح إلا بعد جهد.

قال ميخائيل في أذن ميمي:

ـ اسمعي يا ميمي، إنني أكرهك؟

ـ وهل ترى أنّني أموت في غرامك؟

ـ وأُحبُّك بقدر ما أكرهك؟

ـ ماذا تقول؟ ما لغة الألغاز هذه التي تكلمني بها؟ لمَ تكرهني؟ ولم تحبني؟

فأخبرها بحكاية الترامواي وحكاية المرقص وتغيُّر صورتها في ذهنه بينهما، ثم قال:

ـ إنني أكره الراقصة، وأحب السيّدة التي رأيتها في الترامواي.

فقعدت تنظر إليه، فرأى جانباً من وجهها على شعاع يدخل من النافذة، فإذا عليه جمود مخيف.

ـ وأيُّهما أنا الآن في عينيك؟

فأفلت من هذا السؤال المحرج: وقال:

ـ اسمعي، أنا لا أُحبُّ أن أناديك باسم ميمي. ما اسمك الحقيقي؟

ـ اسمي بهية، ولكن هذا اسم قديم، أكاد أنساه.

ـ لو تعلمين كيف كانت بهية في الترامواي، وكيف كانت ميمي على المسرح!

ـ كيف رأيتني في الترامواي؟

أي ساعة؟

ماذا كنتُ لابسة؟

هل كنتُ جميلة؟

لقد ظننتَ أنني شريفة، أنني ابنة أسرة كبيرة، أليس كذلك؟

أين نزلت أنت؟

لمَ لم تلحق بي؟

عشرات الأسئلة مثل هذه ألقتها عليه وهو يجيبها بشيء من الاستغراب ثم أعادت:

ـ قل لي لم لم تلحق بي؟

ـ كنتُ أخشى أن أتحرَّش بك فأقع على مالا أرضاه. كانت هيئتك الكاملة ذات هيبة. وكنت أحسُّ أنني إذا تجاسرتُ على الدُّنو منك بكلمة أو حركة فكأنّي أخترق حرمة شيء مقدس. ولكن ما لنا ولهذا الآن. أحبُّك يا بهيَّة.

فلمعت عيناها في الظلام وصاحت:

ـ أصحيح أنك تحبُّ بهيَّة؟ لا. أنت لا تحبُّها. إنَّ بهيَّة لا تستسلم إليك ولا إلى سواك. أنت تحبُّ ميمي. ميمي تستسلم إليك. خذها! هي لك كلُّها، لك بابتسامتها العريضة التي رأيتها على المسرح، وجسمها العاري، وفخذيها الملوّحتين، أمّا بهيَّة فيجب أن تلحقها مرَّة ثانية في الترامواي، وثالثة، ورابعة، وعاشرة. لم جئت هذه الليلة إلى هنا؟ لم ذهبت إلى المرقص؟ لم رأيتني في الترامواي؟ لم قلت إنك رأيتني فيه؟

وقامت إلى الزر فضغطته فعاد النور. ونظر ميخائيل إليها فإذا احمرار الغضب على وجهها، وانتفاضةٌ في يديها، وفي أطراف شفتيها، وعلى أرنبة أنفها. وذهبت إلى خزانتها فأخذت منها صندوقة. وطرحتها على الأرض تنثر ما فيها وتفتش، حتى وصلت إلى مغلف صغير، فتناولته وسحبت منه صورة، ونظرت إليها هنيهة، ثمَّ دفعت بها إليه وقالت:

ـ هذه بهيَّة!

ثمَّ تناولت صورة أخرى وفعلت بها ما فعلته بالأولى ودفعت بها إليه وقالت:

ـ وهذه ميمي. بين هاتين الصورتين خمس سنوات.

وكانت السنوات الخمس في عينيها دهراً.

الصورة الأولى تمثلها مع شاب منحنية على كتفه في ظل نخلة.

فذكرته هذه الانحناءة بانحناءتها تلك على زجاج النافذة في الترامواي.

إلا أن شعاعاً من الفرح يطفر هنا من العينين، بدلاً من ضباب الحزن يغشاهما وهي في الترامواي. والثانية تمثلها في غلالة الرقص وقد لاح عريها من خلال تلك الغلالة متأججاً بالشهوة.

ـ فهمتُ. فهمتُ. أنت تحبيّن. عاشقة! عاشقة! الغرام شيء عظيم!

فاستعادت منه الصورتين وأدنتهما من المصباح تتفرس بالواحدة ثم بالأخرى وكأنها تنظر إليهما لأول مرة. وكانت ترتسم على وجهها مشاهدة مأساة. ثمَّ أدخلتهما في المغلف برفق وهي تردّد:

ـ الغرام شيء عظيم! ولكنّك أنت لا تفهم.

ـ أنظري ما الفرق بين موقفنا الآن، وموقفنا لو صحَّ خيال التراموای. أنتِ الآن لي بكلمة من صاحب المرقص.

ـ بكلمة!

ـ وبخمس دقائق سعي.

ـ بخمس دقائق!

ـ وعشر ليرات.. أتريدين أكثر؟

ـ عشر ليرات!

كانت ميمي تردد وراءه هذه الكلمات، وهي خافضة بصرها إلى الأرض، ترديد الأبله أم ترديد الببغاء، ثم رفعت إلى ميخائيل بصرها فجأة وهي تصر بأسنانها وتمضغ قلبها مضغاً بهذا الصرير.

قالت ميمي لميخائيل إنه لم يفهم. أما الحقيقة فإنه فهم كل شيء، ولكن كان عليه أن يحسَّ في قلبه بالذي فهمه في عقله. وهو لم يحس إلا بالشره، فانقض على المرأة فاغراً فاه. فصفعته صفعة طاش لها دماغه، واستولى عليها شبه مجنون،

ففتحت الباب ودفعته منه، ثم ردتّه بعنف، فأحدث قرقعة نهض لها خادم الفندق مذعوراً من نومه، فمشى إلى الزائر بشعره المنفوش وقال له:

ـ لا تؤاخذها يا سيدي. عادتها السكر والعربدة.

فلم يأبه ونزل السلم.

انتظر ميخائيل المساء التالي بفروغ صبر ليذهب إلى المرقص ويرى ميمي. وشد ما كانت دهشته إذ أقبلت إليه ملاطفة وأخذت مكانها إلى جانبه.

ـ أريد أن أراك هذه الليلة.

ـ وأن تفعلي بي ما فعلته أمس؟ لا، لا، لا، أريد أن أراك.

ثم تابع:

ـ كان في استطاعتي أنا أيضاً أن أصفعك. ولكني قلت في نفسي:

امرأة! هل أضع رأسي لرأس امرأة؟

فتفرست به طويلاً وكأنها تحاول أن تقرأ ما في أعماقه، ثم قالت وقد خفت صوتها وأصبحت فيه حرارة وعذوبة:

ـ أتوسل إليك أن تقبل دعوتي. أريد أن أراك، أريد أن أراك. أريد أن أطلب إليك الصفح عما بدر مني. هذه آخر ليلة لي في بيروت. اليوم ينتهي أجل الاتفاق بيني وبين إدارة المرقص، وأسافر صباحاً إلى بغداد. يجب أن تترك كل شيء وتعطيني ليلتك، حتى الأولى بعد منتصف الليل هنا، ثم نذهب إلى الفندق.

ـ إني أكره ميمي المرقص.

ـ وبهية الترامواي، ألا تزال تحبها؟

فاكتفى من الجواب بابتسامة، فقالت:

ـ هذه الليلة لي، هل اتفقنا؟

فلفها بنظرة من رأسها المصفوف الشعر إلى قدميها النازل عليهما طرف ثوبها الطويل الأزرق، وقال:

ـ اتفقنا.

رقصت ميمي تلك الليلة رقصاً ما رقصت مثله قط، ولن ترقص مثله أبداً. كانت تتلوى بقامتها الفارعة وتهز نهديها وردفيها، وتعلو وتهبط وتدور، ثم تعيد الكرة، والحاضرون يرافقونها، ونظراتهم تنصب على سرتها العارية الدائرة

كحجر الطاحون. والموسيقى تضج، والأنوار تنعكس عليها، ومثل هذه الأنوار، بل أشد منها، تشع من وجهها وكل حركة من حركاتها، أنوار من الطرب غريبة. حتى استبد الطرب بالحاضرين، ودوت القاعة بالتصفيق والهتاف، وتطايرت البرانيط والطرابيش في الجو. ولو شاءت ميمي أن تجاري الناظرين لرقصت كل تلك الليلة وهم راضون.

ـ قل لي، ألا أرقص جيداً؟

فقال ميخائيل:

ـ كنت في الترامواي أجمل منك الساعة ومن كل ساعة ترقصين فيها.

في الساعة الأولى بعد منتصف الليل ذهبا إلى الفندق.

وحاول ميخائيل، طول الطريق، أن يحملها على الحديث في شيء فلم يفلح. كانت معتصمة بصمت عميق غريب، ومديرة رأسها إلى نافذة السيارة بانحناءة كانحناءتها على نافذة الترامواي. وكانت زينتها فاسدة، فشعرها منبوش، وخصلتان منه تنزلان على عينيها.

ولما وصلا إلى الفندق، وفتحت ميمي باب غرفتها. أحدث المفتاح صريراً اضطرب له قلب ميخائيل. أما هي فلم تفطن إلى ذلك، وذهبت فارتمت على سريرها، وطمرت وجهها بيديها دقيقتين طويلتين، ثم استوت وقالت وعلى وجهها توسل ذليل:

ـ اسمع يا ميخائيل، لقد مضى على ميمي خمسة أعوام وهي تدوس بهية بقدميها. وبهية تريد هذه الليلة أن تحيا حياتها هي. فهل تشاركها في تذوق هذه الليلة؟

ثم خلعت ثيابها وجذبته إلى السرير. وأمضى ميخائيل معها تلك الليلة في فراش واحد كما لم يمض ليلة مع امرأة قط. طلبت إليه أن يمد ذراعه تحت رأسها، وجعلت تتمرغ على وجهه وهي صامتة. وكان ميخائيل يرغب في الاطلاع على حياتها الماضية وعلاقتها بالشاب الذي أرته صورته والأسباب التي دفعتها إلى أن تتركه وتنقطع إلى الرقص، ولكنها أصرت على السكوت. ثم قالت:

ـ ما يفيدك أن تعلم؟ إنك لا تستطيع أن تغير شيئاً مما قدر لي. إن الماضي مكتوب حفراً. أفيقدر أحد أن يمحو بإسفنجة المحفور على الحجر؟ يمكنك أن تعرف من حياتي أن

اسمي كان بهية، وأنه صار ميمي. ويمكنك أن تحتفظ مني بأنك رأيت ذات يوم امرأة في الترامواي، وأنك اعتقدت ساعة أن تلك المرأة شريفة وابنة أسرة محترمة.

ثم أخذت تردد أسئلتها:

ـ كيف رأيتني في الترامواي؟ أي ساعة؟ ما كنت لابسة؟ هل كنت جميلة؟

ثم قالت:

ـ أتريد أن نطفئ المصباح؟

ولم تنتظر جوابه فأطفأته، وأعادت رأسها إلى ذراعه، وقالت:

ـ أأكون متطفلة إذا سألتك ما اسمك؟ اسمك كله.

فذكره لها، فقالت:

ـ هذه سعادة للإنسان أن يكون له اسم واحد!

ثم جعلت تبكي وتقول:

ـ يا صديقي، لا تؤاخذني. اغفر لامرأة ضعفها. ضح بليلتك هذه من أجلي. أتستطيع؟ ثم مع المرأة التي رأيتها في

التراموای. لا مع الراقصة التي رأيتها على المسرح. أتوسل إليك أن تقلدني هذا الجميل، فأكون لك شاكرة. أحفظ لك هذه اليد طول الحياة. أنا مشتاقة إلى قبلة من القلب، لا من الشفة. أنا أعلم أنك لا تستطيع أن تحبني بقلبك بعد أن عرفت أني راقصة. ولكن تظاهر بأنك تحبني. أعطني منك الشفقة، الشفقة تكفيني. أتشفق علي؟ دعني أقبلك على جبينك... وقبلني أنت على جبيني. قبلني هنا... هنا...

ورجعت إلى البكاء وهي تدفن رأسها في صدره، وظلت كذلك حتى غلبها النوم. فجعل ميخائيل يصغي إلى أنفاسها، تقطعها جهشة كجهشة الأطفال، ثم يحول أنفاسه عن وجهها لئلا يزعج رقادها، حتى تملكه النعاس ولم يعد يعي شيئاً.

وشد ما كانت دهشته في الصباح إذ فتح عينيه فوجد نفسه وحيداً في الغرفة. وسأل في الفندق عن الراقصة، فقيل له إنها سافرت منذ أكثر من ساعة.

الرفيق كامل

قال الرجل لزوجته:

ـ أعطيني سوارك، قومي أعطيني إياه!

كان واقفاً إزاءها على عتبة البيت، خافضاً إلى الأرض عينين مظلمتين. فلم تجب، فصاح بها:

ـ قومي!

وصنع كامل بيده اليمنى إشارة من تحت إلى فوق. إشارة غاضبة كمن عيل صبره، أحسَّت سامية بأنها لو بقيت جامدة على كرسيها لأعادها ضربة عليها أينما جاءت تجيء. فقامت

إلى السرير، وتناولت طرف الفراش وفتقته، ومدت يدها فسحبت السوار، وكان ملفوفاً بخرقة ففكّت ربطتها. فلم يقع بصرها على الحلية حتى اغرورقت عيناها بالدموع، والتوت شفتاها بالحسرة. فتجاهل كامل تأثرُّها، وبعد أن قلَّب السوار على كفه مرتين دسّه في جيبه، وأدار ظهره لينصرف. ثم وقف وسأل امرأته دون أن يلتفت إليها:

ـ أتذكرين بكم اشترينا هذا السوار؟

ـ بأربع عثمانيات، اعلم أن بنتك مريضة، وأني أتنازل عن السوار لتدفع للطبيب، لا لتشرب العرق. كن واعياً ولا تدع الصائغ يغشك.

ولكنه كان واثقاً من أن الصائغ سيغشه. أليس الصائغ في جملة الرأسماليين المستثمرين، أليس هو أحد أعضاء هذه الشركة العظيمة التي تهيمن على العالم والتي يشبهها كامل بالغول. تأكل وتأكل وتظلُّ تأكل ولا تشبع؟ إذا أعطاه مقابل الرهن أربع ليرات ورقاً، فيا سعده! أربع ليرات تكفي طحيناً لزوجته ولأولاده الثلاثة. وعرقاً ودخاناً له طول أسبوع. وفي الأسبوع التالي؟... إنه لا يريد أن يفكر في المستقبل.

فقد يعود في الأسبوع التالي إلى السجن.

كان يسرع في مشيته حتى اجتاز المسافة، بين حي الرميلة الذي يسكن فيه وساحة الشهداء، بأقل من خمس دقائق. وولج سوق الصاغة يعرض السوار، متنقلاً من حانوت إلى حانوت، دون أن يستطيع رهناً له ولا بيعاً. كان الصائغ يضع على إحدى عينيه مكبرة ويتأمل الحلية، ثم يسأل صاحبها ناظراً إليه بعينه المعوجة:

ـ أين شهادة هذا السوار؟

ثم ينظر إليه من رأسه إلى قدميه: فيراه في هيئته الزرية، وفي ربطة عنقه الحمراء القذرة، وقميصه الممزق، وجواربه النازلة على الحذاء، ويعيد إليه السوار متمتماً بكلمات غير مفهومة، أو مسراً في أذن مساعده شيئاً، فينفرج فم كامل بابتسامة احتقار، ويقصد إلى حانوت آخر، فيشيعه صاحب الحانوت السابق بنظرة تقع على فتقٍ في بنطلونه من وراء وكأنها ابتسامة احتقار ثانية!

وأخيراً وفق الرجل إلى صائغ ابتاع السوار بليرتين ورقاً ونصف الليرة، ويعد أن نقده الثمن قال له:

ـ بشرط أن يكون هذا السوار ملكك.

فعبس كامل في وجه الصائغ وتوارى وهو يضغط النقود بين أصابعه ويغمغم:

ـــ سارق أنا؟! أنتم اللصوص! كلكم لصوص، يا كلاب!

كانت سامية تنتظر زوجها على أحر من الجمر، ولم تذهب في ذلك النهار لغسل الثياب لأحد من سكان الحي، بل لبثت في البيت جاثية إلى سرير طفلتها نادية وهي تئن وتجيل عينيها المحمومتين في أمها جولات مخيفة. حتى إذا نامت أخذت سامية ترتب الفرش، وتكنس الحصير، وترفأ ثياب أولادها. وبينا هي تبحث في أحد أدراج الخزانة عن خرقة تخيط بها كماً ممزقاً، وقعت يديها على كتب زوجها وأوراقه مبعثرة في الدرج: من هنا ورقة منزوعة، ومن هناك غلاف مخلوع، ومن هنالك كتاب مفتوح نصف فتحة. فوقفت أمام هذه الأشياء وقد عراها انقباض عظيم، كأن ملقطاً أمسك بها وشدها بين سنيه. أهذه هي الكتب والأوراق التي كانت تنتظر أن يشع منها النور على العالم؟ أهذه معلمة العدل والمساواة ومقوضة

قصور الأغنياء وأصحاب السلطان؟ أهذه هي حاملة الخبز إلى الفقراء، والصحة إلى المرضى، والمعرفة إلى الجهلاء؟ أهذه هي الجوقة الملائكية السماوية التي كان على طبقات البشر كلها أن يمشوا على أغنيتها صفاً واحداً في طريق واحد إلى غاية واحدة هي السعادة للجميع؟

كلمات! كلمات معسولة خداعة!

وطفقت المرأة تنظر إلى محتويات الدرج وتهز رأسها استخفافاً، وتشتم الكتب والأوراق، وتود ـ لفرط هياجها ـ لو تتحرك السطور والكلمات والحروف وتجيبها بشيء. لكنها لم تتحرك وبقيت جامدة، بلهاء، تحتمل الإهانة بصبر عجيب. فأمسكت بكتاب ومزقته وداسته بقدميها. فحبا ابنها الصغير، وكان يحوم حواليها متعلقاً بأذيالها، إلى بقية الكتاب يفتت أوراقه وقد وجد به سلوى فريدة، ولعبة نادرة في بيت لم ير أولاده لعبة في زمانه.

كان كامل إلى ما بعد زواجه بسنة تقريباً موظفاً في إحدى شركات البنزين في بيروت. وكان يتقاضى راتباً حسناً مكنه من استئجار بيت له ولامرأته مؤلف من غرفتين، وكانا

يعيشان راضيين، وكان الزوج يقسم وقته بين عمله وبيته. إلى أن جاء عهدٌ أخذ يتأخر فيه ليلة بعد ليلة، ويعود بكتاب تحت إبطه، وينصرف إلى قراءته حتى انتصاف الليالي، فتسأله سامية أين أمضى سهرته، فيقول لها: عند أصحاب له معهم شغل. ولما تكررت الغيبات وامتدّت إلى أكثر من شهر، لم يسع كامل إلا أن يطلع زوجته على الحقيقة. فجلس بجانبها على السرير وقال لها:

ـ أتحفظين السر؟

فارتعش بدنها، وحدثتها نفسها بأمر مريب يشترك فيه زوجها. إلا أن ثقتها بنبل أخلاقه طردت هذا الظن، فقال لها إن هناك جمعية يعمل فيها هو وأصحابه في الخفاء، جمعية خيرية صغيرة اليوم وضعيفة، ولكنها كبيرة بغايتها، قوية بعقيدتها. وكبيرة وقوية بآلاف وملايين الجمعيات أخواتها المنتشرة في العالم من أقصاه إلى أقصاه، وإنه سيأتي يوم يهب فيه أعضاء هذه الجمعيات هبة الجبابرة، فيقلبون صفحة الدنيا، ويكتبون صفحة جديدة...

ـ بشرط ألا تكون هذه الجمعية ضد الحكومة؟ أخاف عليك.

وكان كامل يشرح لسامية كل ليلة شيئاً من مبادئ جمعيته، ويقرأ فصولاً من كتبه، فإذا فهمت جملة غابت عنها جملٌ. وكثيراً ما كانت تحاول إقناعه بترك هذه الجمعية وهذه الكتب، وتقول له:

ـ هذا نظام الكون. الله أراد أن يكون غني وفقير، وخادم ومخدوم.

كيف تضعون أنفسكم مكان الله وتخلقون الكون على ذوقكم من جديد؟ نحن مكتفون بخير الله. يجب أن نحمده ونبوس الأرض.

فيجيبها أن الله لا دخل له في الأمر، وأن البشر يظلمون أنفسهم بأنفسهم، ويقيمون الحواجز بين فريق منهم وفريق. ويتدفق في الكلام تشنيعاً حيناً بهذه الأوضاع القائمة، وتغزلاً حيناً آخر بالأوضاع المقبلة. وينهض واقفاً، ويذهب ويجيء في الغرفة، وتلمع عيناه بالغضب تارةً، وبالزهو تارة أخرى. وكانت سامية تحب أن تصغي إليه وهو متحمس هذا

التحمس، وأن تراه بصنع هذه الإشارات الكبيرة، فلا تقتنع بعقلها، وتكتفي بإعجابها به، فتهجم عليه وتعانقه، وتطلب من الله أن يحرسه بعنايته.

ومضت الأيام والأشهر، وأخذ البيت يتعرف على اجتماعات الرفاق ومناقشاتهم في الليالي، إلى أن فوجئت الزوجة ذات يوم بأن زوجها في السجن بتهمة توزيع المناشير، وفوجئت بعد خروجه بإقالته من وظيفته في الشركة. فكانت الصدمة قوية عليها وعليه معاً. وقد قبض عليه مرة أخرى بتهمة تحريض عمال الأحذية على الإضراب لزيادة أجورهم. ثم توالت زياراته للسجن، يكاد لا يخرج منه إلا ليعود إليه بتهمة الدعاية الممنوعة. وأصبح بطرق العمل في الحكومة والشركات والمحلات التجارية فيجفونه كما يجفون الأبرص أو المجدور. وكان قد انتقل خلال هذه الحوادث من بيته القديم إلى البيت الحقير الذي يقيم فيه الآن. بيت! قبو، بل مغارة واطئة لا تنفذ إليها الشمس إلا شعاعاً ضئيلاً من النافذة الشرقية عند الصباح، وتتضح أرضها بالرطوبة في عز تموز. واضطرت سامية إلى تذليل نفسها والاستخدام عند الناس لتكفي أولادها مؤونة العوز. وحل الخلاف بين زوجين كانا في

بحبوحة العيش مثالاً للأزواج. فقد كانت المرأة تصاب بنوبات غضب على رجلها، وعلى جمعيته، وعلى الساعة التي تعرف فيها إلى أولئك الأصدقاء الذي انحدروا به وبها إلى هذا الدرك، وتدعو عليهم بالويلات وبخراب بيوتهم كما خربوا بيتها. إلا أن كامل بقي جلوداً جباراً في إيمانه، وكان يرفض الاستقالة من الجمعية سادّاً أذنيه عن توسلات زوجته وصيحاتها، قاضياً نهاره كله والقسم الكبير من ليله مع رفاقه. حتى كان ذات مساء فإذا جدال كبير ينشب بينهم، وإذا سوء التفاهم يتحول خلافاً كاد يوصل إلى التضارب بالأيدي، فأقيل كامل من العضوية، فكانت أكبر مصيبة نزلت به وكادت تزعزع عقيدته.

إلا أنها ارتدت عن ذلك المعقل الحصين ارتداداً، فظل يعقد على عنقه الربطة الحمراء، ولكنه أخذ يبحث عن تعزية، فاهتدى إلى الخمرة، فساءت حاله، وتنكر لعارفيه، فإذا هو مهمل قذر بعد الأناقة والنظافة، وإذا هو شارد الفكر، ضائع النظرات، إذا التقى واحداً من عارفيه أولئك على رصيف حاد عنه إلى الرصيف الآخر.

وكان كثير من الشرطة يعرفونه، فهو زبون مكرر بلا عد، فإذا رأوه لحقوا به وراقبوه.

وكان هو لا يكره ذلك منهم، فقد اتفق له حتى اليوم أن جذب إلى عقيدته ثلاثة من كبارهم بهذا الاحتكاك...

بعد أسبوع اشتد المرض على نادية، فزاد نحولها، وزاد بروز عينيها السوداوين الواسعتين اللتين ورثتهما عن أبيها، فقالت الأم لزوجها:

ـ انظر! انظر إلى هذه الطفلة المسكينة. إن الرطوبة في هذه المغارة تقتلها. أحسُّ أنها ستروح من بين يدي وتنطفئ كالشمعة، وأنت لا تفكر إلا بفلسفتك وكأس عرقك. يجب أن ندعو لها الطبيب مرة ثانية. هل أصدق أنك بعت السوار بليرتين ونصف! أنا حمارة؟ أتعتقد أني حمارة؟ أزل هذه الربطة الحمراء من عنقك، أزلها من وجهي. إنها خنقتك وخنقتني وخنقت أولادنا، وإخال أنهم سيجروننا بها إلى القبر...

ـ من قال لك أن تلدي لي ثلاثة أولاد؟ أولاد! أولاد! أولاد! قال الأب هذه الكلمات، وكرر الأخيرة منها ببطء وذهول وهو ينظر أمامه بعينين فارغتين. ثم تابع وقد رفع رأسه:

ـ أما كنت تقولين لي إن الله يبعث لكل واحد برزقه معه؟ فليبعث لنا برغيف، فليبعث لنا بقنينة كاز، فليبعث لنا بطبيب، قولي له، قولي! صلي إلى إلهك الأصم، اركعي واقرعي صدرك.

فهاجت، وأرادت أن يكون هياجها غضباً فاستحال بكاءً على الرغم منها، فأجهشت وقالت:

ـ ولكنك زعزعت إيماني، فجعلتني أكفر بالله. غفرانك يا الله! ما أحلى الزمان الذي كنت فيه أصلي وأعترف وأتناول! كنت أحس براحة. كنت أرجو على الأقل حياة بعد هذه الحياة تكون فيها الراحة، تكون فيها السعادة، أما الآن...

ـ ها! ها! هؤلاء مثل أولئك. كلهم مساهمون في الشركة، فريق يستأثر الدنيا، وفريق يلهي المحرومين بالآخرة!

ـ رجعنا إلى فلسفتك المسمومة، قلت لك انزع هذه الربطة الحمراء عن عنقك. انزعها، انزعها!

وأمسكت بالربطة وجعلت تشد زوجها بها وهو لا يبدي حراكاً. فزاد غيظها لسكوته، فجعلت تشتمه وتشمت به حتى رفع كفه وضغط على أصابعها، فأفلتت الربطة، وقال لها بابتسامته العريضة:

ـ ولكنك لا تفهمين، ظننت أنك ستفهمين يوماً زوجك، فإذا تعبي عليك يذهب أدراج الرياح. سنحطمهم في قصورهم! قلت لك سنحطمهم! هذه اليد يجب أن تنقض على رؤوسهم، يجب أن تبقر بطونهم. أترين هذه الربطة الحمراء؟ يجب أن ترجع هذه اليد مصبوغة بدمائهم، حمراء كهذه الربطة الحمراء!

وجعل يصيح وقد برقت عيناه وبقيت الربطة منحرفة عن موضعها إلى كتفه، فظهرت له هيئة مجنون تماماً، وكانت المريضة الصغيرة قد استفاقت تنتحب، فذهبت أمها إليها، وخرج الوالد من الباب ودفعه وراءه بعنف، وقصد تواً إلى سوق الصاغة.

ـ لقد خدعتني يا هذا! أعد إلي السوار، أو أعطني أيضاً مثل ما أعطيتني أولاً: ليرتين ونصفاً. بخمس ليرات من الورق

تكون قد اشتريت سواراً دفعت أنا ثمنه أربع ليرات عثمانية. هات المبلغ أو السوار.

فانحنى الصائغ على طاولته وتظاهر بأنه مشغول بحلية أمامه. ثم رفع عينه بالمكبر ونظر إلى كامل مكشراً، وقال:

ـ السوار، بعته يا صاحبي.

وعاد إلى الحلية البراقة بملقطه. فعن لكامل أن يضرب الطاولة بجمع كفه، ويبعثر ما فيها على الأرض، وينتقم انتقاماً فظيعاً. ولكنه لا يدري أي شيء أمسكه، فانقلب إلى اللّين وتقدم من الرجل يحدثه عن مرض ابنته بتأثر حقيقي شعر به لأول مرة هنا أمام وجه هذا الصائغ الأصفر. فأصغى هذا إليه دون أن يوقف عمله. ثم نزع عن عينه المكبّر، وفتح محفظته، ورمى منها على الطاولة نصف ليرة: وقال:

ـ المسألة، إذاً، مسألة شفقة. ها! تغير الموقف. لم لم تقل لي ذلك قبلاً؟ خذ. شفاها الله... بشرط أن تكون صادقاً في كلامك، وأن يكون لك بنت، ومريضة.

وابتسم المحسن ابتسامة أطفحت الكيل في نفس كامل، فقذفه بقطعة النقد، فراحت إلى الشارع، وصاح:

ـ الشفقة! الإحسان! لا! هذه بضاعة لا أتاجر بها! هذه بضاعتكم أنتم! أريد منك العدل! العدل! العدل!

ومشى.. فحمل الصائغ نفسه إلى الشارع ووضع نظارتيه وانحنى يبحث عن النصف الليرة بعينيه وبأنفه حتى وجدها، فنفض عنها تراباً ظن أنه علق بها وأعادها إلى محفظته. ثم التفت إلى حيث ذهب كامل فضحك ضحكة عالية يسخر بها منه، أو يهنئ نفسه بالمال الذي عاد إليه.

أما كامل فعاد إلى البيت وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ويشعل سيكارة وراء سيكارة، وكان يصغي لأنين بنته ويتفقدها من حين إلى آخر، ماراً بكفه على جبينها، فإذا به كالنار، فيذوب قلبه كالثلج ذوباناً ناعماً مؤذياً.

ولما عادت سامية مساء من عملها كان على وجهها ضياء من فرح لم يشع عليه منذ زمان. فدنت من زوجها، وألقت في حضنه كومة من أرغفة يابسة، وهتفت:

ـ أرأيت أن الله بعث لنا حسنة هذه الصغيرة! غسلت ثياباً لجار جديد يسكن الحي، هنا عند المفرق، في البناية الكبيرة، فأعطتني زوجته عشرة قروش وهذه الأرغفة،

وأعطاني هو نصف ليرة. الكل ستون قرشاً! وسيعطيني مثل ذلك كلما غسلت لعائلته ثيابها، مرتين في الأسبوع. هل تؤمن بالله الآن؟

ونظرت الزوجة إلى زوجها بعينين يملأهما الظفر، فإذا به يبتسم ابتسامته العريضة ويسألها:

ـ وماذا قال لك؟ ألم يقل لك إنك جميلة؟

فاكمد وجه المرأة وأجابت بضحكة نافخة تهزأ بها من نفسها:

ـ جميلة! إذا كان لي جمال فقد مضى.

وكان الولد الكبير قد تلفف رغيفاً وأخذ يعضه.

كان كامل ينتظر الصباح بفروغ صبر، ويتمشى في الغرفة، رافعاً عينيه صوب النافذة الشرقية، فإذا لم ير بصيصاً عقد حاجبيه مخاطباً نفسه، وصانعاً إشارات في الهواء، كان خيالها يرقص على الحائط على ضوء شمعة معوجة، تكاد تنقصف من الوسط، موضوعة على حديد السرير الذي تنام فيه المريضة الصغيرة.

كانت نادية قد غابت عن الوعي. وكان أبوها قد ذهب في الليل وحمل في جيبه الستين قرشاً إلى دار الطبيب وطلب إليه أن يعاين بنته مرة ثانية، وقال له إنها في خطر الموت، وإن واجبه الإنساني يدعوه إلى القبول بهذا المبلغ الزهيد إذا أبى إلا القبض. فغضب الطبيب من هذه اللهجة، وأغلق الباب في وجهه.

وكان كامل قد عزم على العودة إلى الصائغ، قص قصة النصف الليرة على زوجته فلامته وقالت له: كان عليك أن تأخذها. صحيح كان عليه أن يأخذها. لو كانت معه وضمها إلى الستين قرشاً لصار في يده مبلغ ربما يرضى به الطبيب أجرة الزيارة.

ومع الفجر رأى حارس الليل، قبل انصرافه من سوق الصاغة، رجلاً رث الثياب يتمشى في السوق، ويلوي، كلما وصل إلى أوله وآخره، أنفه الطويل يميناً ويساراً، ثم يخفضه إلى الأرض ويستأنف شأنه الأول.

فخامرت الحارس الريبة، وود لو يبقى في مكانه لمراقبة الرجل، ولكنه التفت إلى ساعته فإذا وقت نوبته قد انقضى، فهز رأسه وحمل عصاه وانصرف.

وأخيراً فتح صائغ حانوته، ثم الثاني، فالثالث، الخ. أيذهب القدر في نكايته إلى حد أن صائغه لا يأتي إلا الأخير؟

وأحس كامل في نفسه ذُلاً استغربه من نفسه، تقدم من الباب عفواً وعاون صاحب الحانوت على فتحه وكأنه يحمله على الاستئناس به والعفو عن ذنب اقترفه. ودخل وراءه فأخذ الصائغ يرتب حلاه في موضعها وينفخ عليها، ولا يعير الرجل التفاتاً، وساد بين الاثنين صمت طويل مزعج، فبلع كامل ريقه وقال:

ـ أعطيتني أمس نصف ليرة... و...

ـ نعم، ورفضتها أنت؟ إذا كنت مستعداً أن تعيد إلي الليرتين والنصف أعدت إليك السوار، وتخلصت من هذه الصفقة.

ونظر الصائغ بخوف إلى وجه كامل يرتقب الجواب، لأنه كان في الحقيقة مستعداً أن يزيد له بدل النصف الليرة ليرة وليرتين وأربع ليرات بشرط أن لا يستعيد السوار الثمين منه، فقال كامل:

ـ كيف قلت لي إنك بعته؟

واستفاقت في لهجته كرامته الغاضبة، واتفق أن دخلت سيدتان في تلك اللحظة إلى الحانوت، فلملم الصائغ نفسه لاستقبالهما، وأخذ يعرض عليهما سواراً من هنا، وسلسلة من ههنا، وقرطاً من هناك، وكان كامل يرافق هذا المشهد ويتذكر بلاهته. وقد نفعته بعدئذ ولكنها بلاهة ــ بقية كانت فيه من بقايا الأرستقراطية ــ يوم قصد إلى سوق الصاغة في طرابلس بعد العرس واشترى لسامية سوارها. ثم تابع النظر إلى المعروضات والإصغاء إلى المساومات. وحانت منه التفاتة إلى الخزانة التي تلي يمينه، والتي كان الصائغ قد فتحها ليعرض ما فيها على السيدتين ونسيها مفتوحة، فلمح السوار. هذا هو! هذا سواره!

وأخذ يرسل إليه من طرف عينه اليمنى النظرة العجلى تلو النظرة العجلى، ثم يسوي جلسته مقترباً إلى اليمين ومختلساً النظر إلى الصائغ.

وحاول أن يرفع يده عن ركبته، فإذا هي ثقيلة، وإذا أعصابها مرتخية، وإذا هي ترتجف ارتجافاً ظاهراً، فيجتهد

أن يوقفه فلا يستطيع. ثم صر بأسنانه، ووضع كل عزمه ورفعها، ثم دسها في الخزانة، والتمس السوار بأصابعه، حتى إذا وقع عليه وضعه في جيبه، ونهض متثاقلاً يتدخل في الحديث بين السيدتين والصائغ ويقول أشياء لا لزوم لها، تارة إلى جهة الشاريتين، وطوراً إلى جهة الصائغ، والكلمات تتعثر على لسانه بلا وعي.

ولما خرجت السيدتان لم يستطع الصائغ إلا أن يعبر عن سروره بالصفقة الجديدة التي تمت له معهما، ففتح محفظته بحركة كبيرة مملوءة بالزهو، ونقد الرجل الذي كان منتظراً ليرة. فلم يدر كامل أنها صارت في يده حتى أدار ظهره وخرج.

على أنه ما وصل إلى أول السوق، من صوب ساحة الشهداء، حتى كانت الصيحة قد قامت من ورائه:

ـ سارق! سارق! أمسكوه! أمسكوه!

فطنت هذه الكلمة في أذني كامل طنيناً تجاوب في كيانه من أقصاه إلى أقصاه. ولكنه تابع سيره برباطة جأش،

حتى تجمع عليه الناس، وملأت صفارات الشرطة الفضاء بطلب النجدة. وانقض عليه شرطي وبصق في وجهه:

ـ أهذا أنت البلشفيكي؟ بلشفيكي وسارق أيضاً!

وضرب بيده إلى جيبه فانتزع السوار، ثم ساقه إلى المخفر حيث لقي من الشرطة الآخرين لكماً ورفساً كثيرين قبل أن يغلقوا عليه باب النظارة وهو لا ينبس ببنت شفة.

ولما تواروا، نظر إلى ربطته الحمراء فإذا هي ممزقة، وإذا عليها قطرة دم كبيرة من أنفه، لامعة لمعاناً أخاذاً. فابتسم لها ابتسامته العريضة، وظل محدقاً إليها، وقد استحالت في عينيه إلى فجر كبير أحمر يغمر الدنيا.

كاراخو

اختلفت آراء أهل القرية اختلافاً كبيراً في المهاجر العائد إلى بلاده. خرجوا من بيته بعد تهنئته بالسلامة وأخذوا يتجادلون:

ـ بالأمس كان درويش الموالي يشكل شرواله ويحمل المحراث. عشر سنوات مرت وكأنها عشرة أيام. هاهو يعود مثل أولاد الملوك... خمسون ألف ليرة!

ـ خمسون ألف ليرة؟ أنا أراهن على أنه لا يملك مائتين.

ـ سمعت أخته تقول إنه كان صاحب أملاك وتجارة طويلة عريضة في أميركا. فباع أملاكه، وصفى تجارته، وجاء ليبني بيتاً بقرميد، ويتزوج.

ـ أتصدق هذه الأخبار؟ أخته تريد أن تزوجه. أما أنا فقد سمعت أنه استدان من ابن عمه رؤوف أجرة الطريق. الغني هو رؤوف! عنده سوق في أميركا على حسابه. ولكنه لا يريد أن يرجع إلى البلاد.

ـ أتظن أنه مشتاق كثيراً إلى كبابة؟ أتريد أن يعود إلى الفرن وإلى الدخان الذي كان يصبغ وجهه وثيابه؟ تزوج أميركية مثل القمر. امرأتي رأت صورتها عند أخت درويش. بيضاء شقراء.. ورؤوف نفسه أصبح مثل الأميركان.

ـ ودرويش، أي شيء يشكو؟ اسم الله! ألم تسمعه يحدثنا طول الوقت بالأسبانيولي؟ مي ستيور... مي سنيوريتا!

ـ وهل نسيت كاراخو! كارَّ.. ر اخو!

وقلد الرجل لهجة درويش في التشديد على الراء، فضحك الجميع، ثم أردف:

ـ عائلة الموالي فلاحون بفلاحين، أمضوا عمرهم في القبو ينامون مع البقر. تصوروا درويش يفلح وينخز البقرة بمساسه وهو يصرخ فيها: سنيوريتا كاراخو! كاراخو سنيوريتا! كان عليه أن يأخذها معه لتتعلم اسبانيولي.

ـ تخلص من البقر. وما دارت الدائرة إلا علينا نحن. ماذا كنا خسرنا لو سافرنا إلى أميركا مثل درويش ورؤوف؟

في اليوم التالي خرج العائد وأخته يردان الزيارات. وكان درويش يتنقل من بيت إلى بيت ببرنيطة ذات رفارف عريضة، وبمظلة يعلقها في ذراعه أو ينكت بها الأرض وهو يمشي. وكان الرجال والنساء يستقبلونه أحسن استقبال. ويشيعونه إلى الطريق بفضول وكثير من الاحترام. للفريقين منفعة منه: الرجال يشتغلون غداً في بناء بيته، والنساء يدبرن له عروساً. حتى لقد لبست الست أو السبع البنات الموجودات في كبابة أجمل زينتهن ذلك اليوم. ومنهن من أجبرتها أمها أو عمتها على تقديم القهوة بيدها إلى الخواجه درويش، وعلى سؤاله عن أحوال أميركا، وهل تعب في البحر أو لا. وكان درويش ينتظر مثل هذه الأسئلة ليفيض في الكلام:

ـ كاراخو! عندنا، في كولومبيا، الشوارع ملساء مثل الحرير، والحكومة ساهرة على راحة الناس... كنت خارجاً ذات يوم إلى شغلي مع الفجر فسمعت صوت جارتي: "بحياتك يا سنيور كارينتي! بحياتك يا سنيور كارينتي! سامحني هذه المرة!" فقلت في نفسي: السنيور كارينتي هنا! ولم أصدق أذني حتى دنوت فرأيت السنيور كارينتي ـ السنيور كارينتي بذاته ـ يقول: سنيوريتا! سنيوريتا! ـ بكل تهذيب، لأن عندنا احتراماً للنسوان ـ كيف تتركين الأوساخ في الشارع؟ فدنوت من السنيور كارينتي وقلت له: "إكراماً لذقني يا سنيور كارينتي!" فقال لي: "أوه! سنيور درويش، أهذا أنت؟" ولو لم أدخل في الأمر لساقها إلى الحبس.

ونظر درويش حواليه، فإذا السامعون يبتسمون ابتسامة بليدة. فعقد حاجبيه وأردف:

ـ أتعرفون من هو السنيور كارينتي؟ حاكم كولومبيا!

ونظر مرّة ثانية، فإذا فوقه سماء تضيء بالعيون المدورة، فاستأنف:

ـ من أعزِّ أصدقائي، ولا كلفة بيني وبينه، انظروا، هذه هدية منه.

ودفع بطنه أمامه. وتناول ساعة ضخمة لماعة من سترته مربوطة بسلسلة ثخينة مزدوجة، ثم قال:

ـ ماركتها "باتك فيليب"، أخت الساعة التي يحملها هو..... والسينيوريتا كارينتي، لو ترون ما ألطفها!... أما هنا فالأوساخ تأكلكم وأنتم ساكتون تكتفون الأيدي! الرائحة على طول الطريق قتلتني في بيروت. والحالة في كبابة ألعن... كاراخو!... اصبروا عليَّ. سأنزل عند الحاكم. من هو الحاكم في بلادكم؟ سأنزل عنده وأقول له: هذا لا يجوز، سنيور، الأمراض تنتشر من الزبالة!

ويستمر درويش في الكلام على عظمة أميركا وأبنيتها وأهلها وقوانينها وكل من فيها وما فيها مستخفاً بوطنه. ولو لم تنبهه أخته بوخزة في ساقه إلى أن الزيارة قد طالت، وأن من الواجب أن يقوما لئلا يعتقد أهل البيت أنه حطَّ عينه على بنتهم لما أمسك. حينئذ مدَّ درويش يده إلى "البانك فيليب" وسحبها بجلال وغمغم:

ـ كاراخو! راح الوقت، خاطركم.

في الأسبوع التالي علا في المقلع، في طرف القرية، صوت البارود كان درويش قد عزم على بناء بيته. وكان له أراضٍ واسعةٌ، ولكنه أبى إلا أن يبني فوق البيت القديم الذي ورثه عن أبيه.

وأصبح درويش منذ ذلك اليوم حركة دائمة، حمل مظلته ووضع في رجليه حذاء عتيقاً يؤكد الخبثاء في كبابة أنه حذاؤه قبل عشر سنوات، تركه يوم سافر، فحفظته له أخته سليما معافىً، وأخذ يتنقل بين المقلع والبيت، ويصدر أوامره باللغتين.

واتفق مرة أنَّ فاعلاً كان يعالج بالمهدة والإسفين حجراً كبيراً في المقلع ويلهث فوقه عاجزاً، فعلق درويش مظلته على غصن سنديانة، وصاح:

ـ أعطني المهدة لأرى!

فظن الفاعل أن درويش يمزح، فرفض إعطاءه المهدة، واحمرَّ وجهه خجلاً، فهجم درويش على المهدّة هاتفاً:

ـ كاراخو، هاتها!

ورفعها فوق برنيطته وضرب بها بكل قوته، فجاءت على حد الإسفين، فزلقت وأصابت قدمه، فهرست إبهامه حتى بصق الحذاء الدم. فحمل ساقه بيده. وعرج حتى استلقى على ظهره تحت السنديانة وهو يردد: كاراخو! كاراخو! وتهافت الفعلة عليه يؤاسونه ويهزون برؤوسهم تأسفاً. ويلومونه على هذه المغامرة. وهو يئن ويفتش بعينيه عن الفاعل الذي كان يعالج الصخر. فإذا هو يقبل حاملاً الساعة في يد وقطعة من سلسلتها باليد الأخرى، وينفخ نافضاً عنها التراب. ففزّ إليه وقد نسي جرحه، وتناول الساعة بيدين ملتاعتين، فارتجف الفاعل وتمت:

ـ إن شاء الله لا يكون أصابها عطل. أما قلت لك، يا خواجه درويش، إن يديك لم تتعودا حمل المهدة؟

ورفع درويش الساعة الضخمة إلى أذنه، فانحنى الفعلة يحبسون أنفاسهم. فإذا به يتهلل وجهه ويقول:

ـ وجَّه الله لك الخير يا سنيور كارينتي! هذه "باتك فيليب"، لو ضربتها بالمهدة لظلت ماشية!

فتنفس الفعلة الصعداء.

ومضت الأيام.. وكادت النساء يمتن ضجراً لتأخر درويش في خطب عروس له.

ـ ألم تعجبه واحدة من كبابة؟ أيتكبر على بنات قريته؟ أحسن ممن هو؟ لم تنس بعد أصله ولا فصله.

ـ أخته واحدة بنت حرام، لولاها لكان تزوج من زمان! مضى شهر ونصف على وصوله وهي تقول له: هذه سوداء، وهذه عيناها صغيرتان، وهاتيك أمها كذا وكذا.. لا يعجبها العجب!

ـ راحت الملعونة يوم الأحد إلى طمران وادعت أن بنت خالها مريضة وأنها قصدت لزيارتها. كذابة! راحت تفتش له عن عروس!

مسكينة كبابة! حظها قليل! بالأمس تزوج ابن الشيخ صالح أيضاً من طمران، فكأن البنات انقطعت عندنا.

ـ أنا أرى أن درويش لن يتزوج لا من كبابة، ولا من طمران. لتقل كل واحدة لبنتها أن تريح بالها، لو كان فيه

خير، كما يقول أبونا الخوري، لكان يأتي إلى القداس يوم الأحد مثل أولاد الأوادم.

القداس! والصلاة! والقربان!... هذا شيء كان لدرويش فيه رأي أيضاً. وذلك الرأي هو الذي أبقاه بعيداً عن الكنيسة. ولكن أخته ألحت عليه ذات يوم وقالت له: هذا عيد الفصح. هذا الأحد يجب أن تذهب معي إلى الكنيسة.

ـ كاراخو، إكراماً لك أذهب، لا إكراماً للفصح!

وركز درويش ساعته، وأمسك بمظلته، ووضع برنيطته ذات الرفارف العريضة... إلى القداس، فسارت بين النساء همهمة سرور. وشكرت أمهات العرائس الله ومريم العذارء على أن صهرهن المنتظر ليس كافراً كما ادعى أبونا الخوري. وأبونا الخوري نفسه لم ير درويش بين الحضور حتى جهر بصوته وجعل ينغم في صلواته. ودعا القندلفت إلى المذبح، وهمس في أذنه بأن ينظف الصينية، ويضع عليها المنديل الحريري الأبيض، وأن يبدأ الطواف بالخواجة درويش. فلما وقف القندلفت بالصينية، وبابتسامة عينه الواحدة أمام درويش، اشرأبت الأعناق، وتحلحلت الأقفية عن المقاعد.

ولكن درويش ظل ناظراً إلى المذبح، مريحاً ذقنه على رأس مظلته الواقفة بين فخذيه وكأنه لا يفهم شيئاً. فانحنى القندلفت بصينيته، فإذا بدرويش يضربها بمظلته فتقع من كف القندلفت محدثة على بلاط الكنيسة رنَّة عظيمة متجاوبة الأصداء:

ــ كاراخو! ألا تزالون متأخرين في هذه البلاد؟ هذه أعمال شحادين يا أبونا! إذا كنت محتاجاً إلى مساعدة فاذهب إلى بيتي أعطك شكاً على البنك، أما في الكنيسة...

وأجال درويش في السامعين عينين محمرتين، فإذا هم يخفضون رؤوسهم متهامسين، وإذا الكاهن يعود بوجهه إلى المذبح مستأنفاً قداسه، بلا تنغيم. وحمل القندلفت صينيته ولم يتجاسر على إكمال الطواف.

بعد القداس تزاحم الشُّبان على الجرس يدقونه، فوقف درويش ينظر إليهم. ثم وضع مظلته جانباً، وخلع برنيطته، ووضع "الياتك فيليب" في البرنيطة، ثم دنا فأمسك بالحبل، ولف طرفه على كفه، وهتف:

ـ قبل أن أسافر كنت أُربِّعه بيد واحدة!

وشدَّ، ثم أرخى، ثمَّ شدَّ، ثم أرخى، والشبان كلهم عيون عليه، ثم جذب الحبل تحت خاصرته جذبة صب فيها قوته وثقله، فانخلعت ذراعه إلى الوراء، وأفلت الحبل طائراً في الجو على حائط الكنيسة، ثم أهوى فضرب وجهه، فكان له من المغامرة أَلَمَان: الواحد في مرفقه وقد أحسَّ أنَّه ينقصف، والآخر في أذنه وقد كان يصلمها، فضلاً عن سخرية الشبان وقد سنحت لهم فرصة الانتقام منه على ما صنع بالقندلفت.

وتلمس درويش ساعته وبرنيطته ومظلته وقال:

ـ كاراخو! الناس هنا مثل البهائم! سأوصي لكم على آلة لدق الجرس بزر صغير يضغطه ولد بإصبعه، كما نعمل عندنا في كولومبيا.

راحت أيام، وجاءت أيام، فإذا صوت البارود في المقلع يسكت، والبناؤون يوقفون رصف الحجارة. تجمع لهم في ذمة الخواجة مبالغ وهو يماطلهم. وكان آخر موعد بينهم وبينه السبت الماضي إذ قال إنه نزل إلى بيروت ليسحب من البنك. أي

بنك هذا؟ نزل إلى بيروت ثلاث مرات بعد ذلك ولم يسحب شيئاً، ولم يدفع لسائق السيارة أجرته.

وتجمع الفعلة والبناؤون ذات مساء وذهبوا إلى منزله ساخطين، فاستقبلتهم أخته وقالت لهم إنه ــ عقبى لجميع العازبين! ــ ذهب إلى طمران ليرى ابنة المختار التي خطبتها له من أبيها، وإنه قبض المال من البنك، وإنه في الصباح يكون هنا ويدفع لهم إلى آخر بارة، فيستأنفون الشغل ليكون البيت معداً لاستقبال العروس بعد شهر على الأكثر.

فمنهم من صدَّق كلام الأخت واستبشر، ومنهم من لم يصدق فغمغم. وأخيراً خرجوا وقد عزموا على الانتظار تلك الليلة.

ولكنَّ الصباح طلع وجاء المساء، وتلاه مساء وصباح، وصباح ومساء. ولم يدفع درويش قرشاً. فضجوا وأوصلوا الخبر إلى شيخ كبابة والخوري، وطلبوا توسطهما بينهم وبين درويش. فذهبا إليه وأخبراه بأنَّ العمال جماعة فقراء، عيالهم تطلب الخبز، وهم متعودون أن يتناولوا أجورهم يومياً، ففرج درويش فخذيه والتفت إلى الخوري قائلاً:

ـ أصحيح ما أخبروني عنك يا محترم؟ كاراخو! نحن في عصر الحرية، كيف رفضت أن تزوج رشيد البداد من زهرة تميم؟ أبوها غير راضٍ؟ يرضى بعدئذٍ على مهله! السنيوريتا! كاراخو، أعني البنت. لها حريتها عندنا في كولومبيا مثل الشاب.

فتبادل الشيخ والخوري نظرة، وقال الشيخ مقاطعاً:

ـ ولكن هذا حديث آخر يا خواجة درويش، ولكل حادث حديث نحن جئنا....

ـ كاراخو! هذا ظلم، تستطيع زهرة أن تقيم الدعوى عليك يا محترم، وعلى أبيها. عندنا في كولومبيا البنت تعاشر، وتروح وتجيء مع الشاب الذي تريده، ولا أحد يسألها عما تفعل. كاراخو! ليس له حقّ أن يسألها.

ـ يا خواجه درويش...

فمدَّ درويش كفَّه ملوِّحاً بها في الفضاء، وأغمض عينيه نصف إغماضة، وقال:

ـ فهمت! فهمت! المبلغ كله ثمن علبة سكاير. ذات يوم كنتُ في البر، فخطرت السيكارة ببالي، فأرسلت سيارة

خاصة على سفر يومين إلى كولومبيا ويومين رجوعاً، أربعة أيام، وكلفتني علبة السكاير خمسين ريالاً. كاراخو! أهارب أنا من كبابة؟

ثم ادعى أمام الشيخ والخوري أنه كتب إلى وكيل أملاكه في كولومبيا بإرسال ألف إنكليزية على جناح السرعة. وبين عشرات من الكاراخو صرفهما عنه، فذهبا وقصا القصة على العمال.

كان من الطبيعي أن لا يقتنع العمال بهذه الحيلة، فجمعوا جموعهم في السهرة وتآمروا على درويش، فلمَّا كان الصباح ذهبوا إليه يهددونه هذه المرة ويهزأون به. فوقف على العتبة وسحب الساعة البراقة وقال:

ـ خذوا "الباتك فيليب" رهناً!

وفك سلسلتها من زر سترته وهم يدفعها إلى كبيرهم. فأخذ بعضهم ينظر إلى بعض متسائلين، وبرقت عيون السذج منهم، ولكن كبيرهم صاح:

ـ خلِّها لك، تنكة مدهونة! نحن نعرف كيف نأخذ حقنا!

ـ احتفظ بها هديَّة من السنيور...

ـ من السنيور كارينتي! ها! ها!

ـ أشبعتنا كذباً وادعاءً.

ـ أبوك كل عمره يأكل مال الناس.

ـ ارجع إلى البقرة والمساس!

وأشار كبيرهم إلى رفاقه فتبعوه، وانقضوا على الحيطان الجديدة القائمة فوق سطح البيت القديم يهدمونها ويبعثرون حجارتها في الطريق، ودرويش يترجى هذا، ويهدد ذاك، ويركز برنيطته القافزة على رأسه، ويلوح بمظلته، وهم ماضون في عملهم يقهقهون من قهرهم ويصيحون:

ـ كاراخو! كاراخو! كارررراخو! كاررررراخو!

وقعت هذه الحوادث كلها في كبابة قبل خمس عشرة سنة، وقد رجع درويش الموالي على أثرها إلى أمريكا، وماتت أخته بعد سفره بسبعة أشهر من كثرة ما دعت عليها زوجة شيخ طمران إذا صدقت النساء، ومن كثرة ما كفر أخوها درويش إذا صدق الخوري.

ولا يزال المار في كبابة يشاهد ، في الجهة الشرقية منها ، حجارة صبغتها العناصر ، مبعثرة على قبو قديم حقير، وقد نسي صغار القرية اسم أصحاب البيت الحقيقي، فهم يقولون "بيت كاراخو".

ميثاق الموت

إلى صديقي ميخائيل نعيمة

كان الحديث عن الحالة السياسية في العالم، وعن احتمال نشوب حرب عامة جديدة، فقادنا الموضوع إلى تذكارات الحرب الماضية، فأخذ كلٌّ منا يدلي بما عنده ويستشهد بما كتبه المؤرخ الفلاني والروائي الفلاني عن تلك المأساة الفظيعة التي تناحر فيها البشر من سنة 1914 إلى 1918. وكان بيننا صديق ساح في الأرض وقُيّض له أن يحمل البندقية إلى جانب الذين حمّلوا بنادقهم أربع سنوات متواصلة، فقص علينا القصة التالية، قال:

كان ذلك في أواسط سنة 1918، وكانت الأوامر قد صدرت إلينا بالمسير إلى الجبهة نجدةً للجيش المقاتل، وكان بين رفاقي واحد شدَّت بين نفسه ونفسي روابطُ من المحبَّة حتى أصبح لي مثل أخ. لست أدري أيَّ كآبة حلوة كانت تتقطر من عينيه الزرقاوين. وأيَّ طيبة قلب ترفُّ بجناحيها الأبيضين على شاربيه؟ وأيَّ شيء في صوته الحار يدعوك فتنجذب إليه انجذاباً وتحسُّ أنَّه أخذك بخيط من قلبك إلى حيث يريد؟

وكان فرنسوا ـ وهو اسمه ـ يكره الحرب. يجب أن لا تروا في هذا الكره جبناً، لا، فقد كان فرانسوا شجاعاً إلى أبعد حدود الشجاعة، ولكني ما أزال أذكر كلمته: "يا صديقي، إنّي أربأ برأسي" أن يكون مثل البندقية محشواً بالبارود والرصاص!".

قد أنسى أهوال الحرب كلها، ولا أنسى صورة فرنسوا ما حييت، كانت السيارات قد سبقتنا بأمتعتنا إلى مكان نصبت فيه للجنود خيام، وحفرت خنادق. ومشت الفرقة إلى ذلك المكان أياماً، ووصلت إليه ليلاً، فجلسنا للعشاء، وفجأة التفت إليَّ فرنسوا وقد أوقف اللقمة دون فمه وقال:

ـ من يضمن لنا أن هذه اللقمة تصل إلى فمنا ولا تسبقها إليه قنبلة؟

وما أكمل قوله حتى انشقت الأرض على مقربة منا في ثلاثة مواضع وانفجرت دخاناً وتراباً وحجارة بثلاث قنابل لم نعلم من أين سقطت علينا. وكان الجوع يصيح في أحشائنا صياحاً، فتركنا الطعام وزحفنا على بطوننا نلتمس المخابئ. ثم أطفئت الأنوار وصدر الأمر إلى الجنود أن يذهبوا إلى حقائبهم، وكانت مرصوفة على بعد مائتي متر تقريباً، على أن يتناول كل منا الحقيبة التي تقع عليها يده، فإذا رجعنا إلى خيامنا أضأنا المصابيح ووزعت الحقائب على أصحابها، فدنا مني فرنسوا ووضع ذراعه على كتفي وقال:

ـ سأضرب يدي، فإذا أصبتُ حقيبتي كان ذلك دليلاً على أني سأعود من الحرب سالماً، وإلا فموتاً أموت بعيداً عن زوجتي وأولادي وأمي وبيتي ووطني.

فظننته هازلاً، فقلت:

ـ أمجنون أنت؟ إن الحقائب ألف ومائتان، فكيف تريد أن تقع يدك على حقيبتك من بين هذه التلَّة العظيمة؟

فلم يجبني، وتابعنا طريقنا حيناً مشياً، وحيناً ركضاً، وأحياناً زحفاً على البطون. وكان الليل أسود مثل الفحم. وفيما نحن عائدون قال لي فرنسوا:

ـ ماذا تقول إذا كانت حقيبتي؟

ـ أقول إنها مصادفة، إنَّ من المصادفات لأعاجيب. ولكنَّك لن تستطيع أن تقنعني بأنَّ ذلك دليلٌ على شيء، على ما تعرف من حبي لك وحرصي على أن تسلم من كل أذى.

وسمعت حركة، ورأيت، على اشتداد الظلام، يد رفيقي تمتدُّ وراء ظهره وتتحسس الحقيبة، ثم قال لي:

ـ مصادفة! سمِّها أنت ما تشاء. أمَّا أنا فلن أتحوَّل عن عقيدتي (وكان صوته يرتجف). يُخيل إلي أنها حقيبتي... إن الكون مملوء بالأسرار. وبين هذه الأسرار ونفوسنا نحن البشر، بل بينها وبين كل حيٍّ وجماد في الكون، تجاذبٌ خفيٌّ، وتفاهمٌ، وتفاعل. نسميه نحن في لغتنا مصادفات طوراً، ونسميه طوراً أعاجيب من السماء، ولا نفهم منه كثيراً ولا قليلاً، ولكننا نتحمل نتائجه. ونقف عندها مشدوهين. أقول لك إذا كانت هذه حقيبتي فإني أسلم.

وامتزجت في نبراته رنَّة جواهر من السُّرور والأمل. وكنا ما نزال نمشي. فلم أشعر إلا ويدي، أنا أيضاً تحاول على غير وعي مني أن تمتد إلى ما وراء ظهري. وتذكرّت أن في حقيبتي من جهة اليسار دبوساً شككته فيها لرتق فتق. فألحَّت عليَّ رغبة هي أشد من الفضول بأن أتحسَّس مكان الدبوس. أحقيبتي هي؟ ولكنَّ يدي لم تطاوعني، واستولى عليَّ قلق غريب، مع أني كنت قبل دقيقة أسخر من فرنسوا لإيمانه بهذه الخرافات. وأردت أن أسري عنّي، فأخذت أناجي نفسي: أمجنون أنا؟ أمن الممكن أن تكون حقيبتي قد طلعت لي بين ألف ومائتي حقيبة؟ من يدري؟ ربما يكون الحظ قد قذف بها إليَّ... أيُّ مفاجأة إذا مددت يدي إلى جهة اليسار، من هنا، ووجدت الدبوس؟ ما الفائدة من ذلك؟ سنصل إلى الخيام بعد دقيقة، فأرى على النور أحقيبتي هي أم لا، ما دمت مضطراً إلى معرفتها بعد دقيقة. فلم لا أمدُّ يدي الآن إليها وأعرف؟

وأخيراً مددتها وأنا أحسُّ عليها الارتجاف. ولكنَّها ما لمست طرف الحقيبة حتى ارتدَّت، وحدّدت نظري في الظلام إلى فرنسوا فإذا هو قد سبقني يركض ركضاً ليصل إلى

الخيام ويرى حقيبته. فكدت أهزأ من بلاهتي. ولكن كفي عادت إلى الحقيبة بمثل السحر، فإذا هي تقع على الدبوس، فكاد عقلي يطير! وأخذت أتحسس الدبوس بأصابعي وأتفحصه. هذا هو! هذه هي حقيبتي!... لا أدري أية غبطة غمرت قلبي في تلك اللحظة النادرة من لحظات الحياة! على أنها غبطة خالطها من المفاجأة اضطرابٌ سرى في دمي من أم رأسي إلى أخمص قدميَّ، وخلع قلبي خلعاً حتى سمعت دقاته في ضلوعي كدقات الجرس. وتابعت سيري، وقد انقلب أمري من الهزء بما كان يحدثني به رفيقي إلى الإيمان به كنبوءة مقدسة على كفري بالنبوءات وبالأنبياء جميعاً وأخذت أحاور نفسي وأردد ما سبق من كلامي لفرنسوا، حتى وصلت إلى الخيمة. فكان أوَّل همي أن قلبت الحقيبة على النور، فإذا هي حقيبتي. فداخلتني خيلاء عظيمة، وشعرت بفخر لا أستطيع له وصفاً على رفاقي هؤلاء الذين كانوا يضجون ويتقاذفون بالأرقام والحقائب واللعنات. ثم فتشت عن فرنسوا فإذا هو قاعد في زاوية وحقيبته بين قدميه ينظر إليها وقد أسند رأسه على كفه خائباً. فعرفت ما وقع له. وأردت أن أخفّف عنه

وأردد عليه ما سبق لي أن قلته قبل أن ذهبنا لنأخذ الحقائب، فخانتني قواي والتصق لساني بحنكي. كان الإيمان الذي يملأ قلبه قد مشى إلى قلبي وملأه. فخجلت من تلعثمي أمامه. ولكني لم ألبث أن لبست وجه الكذب. فرميت بحقيبتي على الأرض وصحت:

ـ وأنا أيضاً لم تطلع لي حقيبتي... كانت مع فردينان، أتعرفه؟ وشأن الجنود جميعاً شأني وشأنك. فلم تكون أنت وحدك قليل العقل؟ أتعتقد أن الفرقة ستذهب طعاماً للرصاص والنار؟ أما تخجل يا جبان؟ (كنت أنا الجبان وحدي). أما تخجل أن ترى الموت يحصد ألفاً ومائتي جندي وتخرج أنت معافى وكأنك رأيت حلماً من الأحلام؟

فرفع إليَّ فرنسوا عينيه، فلمحت فيهما صراعاً هائلاً بين شجاعته وعقيدته. ثمَّ هزَّ رأسه، فرقص شارباه على هذه الهزَّة رقصة جناحي الخفاش وتمتم:

ـ سأموت!

ومنذ تلك الساعة أصبحت فكرة الموت ملازمة لفرنسوا ملازمة أنفاسه، فإذا أكل رأى الموت في صحته، وإذا نام

كان في فراشه، وإذا قام لقيه تحت إبطه. فكأنَّ الحادثة التي وقعت له وهو يتناول حقيبته من بين ألف ومائتي حقيبة قد كتبت بينه وبين الموت ميثاقاً.

قلت لكم إن فرنسوا كان جندياً باسلاً. وقد تحوَّلت بسالته بعد تلك الحادثة إلى تهور أعمى، يقذف بنفسه إلى الرصاص والنار وكأنه يقذف بحجر عن الأرض. إذا شنت وحدته هجوماً كان أول الهاجمين، أو تراجعت كن آخر المتراجعين. أما إذا احتاجت القيادة إلى الاستكشاف ونودي على الجنود من له هذه المرة، فلا يدع أحداً يقوم عنه بهذه المهمة المحفوفة بالأخطار. فحرت في أمره، وكنت أقول له:

ـ يا أبله، إذا كنت تخاف الموت إلى هذا الحد، فلم تدفع بنفسك إليه طعاماً سائغاً في كل مناسبةٍ؟

فيبتسم ابتسامة صفراء ويحييني:

ـ أنا لا أخاف الموت، وما خفته في حياتي قط، ولكني سأموت! والموت يرصدني في أول الصف ويرصدني في آخره، يرصدني في السماء ويرصدني من تحت الأرض. فأنا أريد أن أثبت له أني لا أهرب منه، وما الفائدة من الهرب منه ما دمت

أحسه في ثيابي، فالأفعوان ينسل وراء ظهري. ويصعد إلى كتفي، وينزل على صدري، ويلتف حول عنقي؟...

ودار الفلك دورته...

ومشت البشرى بأن الحرب انتهت، وتعالت في الفضاء تهاليل الظفر، وانكب الجنود يعانق بعضهم بعضاً، فشددت بيدي على يد صديقي وقلت له ضاحكاً وقد خامرني سرور عظيم:

ـ ها! أما قلت لك لا تؤمن بالخرافات! ها إن الحرب تضع أوزارها، وها أنت مثل الفيل عافية ونشاطاً، لم يصبك خدشٌ، بل مرَّت عليك الرصاصات والقنابل كما تمرُّ قطرات المطر على الزجاج: أشرقت الشمس فعاد ثقباً لماعاً، خذ كأسك واشرب نخب الظفر، أما نحن الظافرون؟ والله إن لك يداً في هذا الانتصار. اشرب! اشرب نخب الانتصار!

ـ بل نخب الموت!...

فلم أشكَّ عند هذا الجواب أن في صاحبي مسّاً من الجنون، وساورتني عليه المخاوف، ووضعت عليه منذ ذلك اليوم عيناً مراقبةً مشفقةً، وأخذت على نفسي عهداً أن أصحبه

إلى وطنه، فأوصله إلى بيته، وأوصي أهله بمداراته لعلهم يزيلون من أعصابه آثار الصدمات والأهوال التي لقيها في الحرب.

وكان علينا، ونحن راجعون من ميدان القتال، أن نمشي مسافة كبيرة لنصل إلى الطريق الصالحة لسير السيارات فنركبها، وساعدني الحظُّ فكنت وفرنسوا في صفٍّ واحد. ولكنَّا ما كدنا نمشي ساعتين حتى رأيته ينزع بندقيته عن كتفه ويرميها بين الأدغال على جانب الطريق الضيق الذي كانت الفرقة تسلكه وسط الحقول، ثم يلتفت إليَّ ويقول:

ـ إرم بندقيتك!

ثم رفع صوته ملتفتاً إلى الجنود:

ـ أرموا بنادقكم! أرموا بنادقكم أيها الرفاق!

فحاولت أن أفهمه مغبَّة فعلته، وأن أردَّه عن غيّه، فحدّق إلي تحديقة مخيفة، عاقداً حاجبيه كأنه يهددني، ثم انفرجت أساريره وشرع يقهقه قائلاً:

ـ انتهت الحرب! انتهت الحرب! فليحي السلام! أهتفوا معي: فليحي السلام على الأرض! سننام غداً على فرشنا

الوثيرة بدل الخناق، وبين أنفاس زوجاتنا المحبات بدل روائح البارود الخانقة! انتهت الحرب! انتهت الحرب!

وكان جنديٌّ بالقرب منا قد ذهب إلى الدَّغل فحمل البندقية إلى صاحبها. فلما رآها فرنسوا عاد إليه هدوء حزين، فتناولها يقلبها بين يديه، ويضع عينيه على فوهتها، ويفحص كل جزء منها كأنَّه يرى بنقدية لأول مرّة في حياته، ثم علقها بكتفه وواصلنا السير.

سرنا أسبوعين كاملين، ست عشرة ساعة في النهار مشياً متواصلاً وثماني ساعات من الليل للنوم. والمطر ينهمر علينا ويلصق ثيابنا بأجسامنا، يساعده على ذلك العرق المتجمد المتلبد فيها منذ أربعة أشهر. ولكن ذلك وكثيراً غيره من المصاعب والمتاعب لم يكن ليؤثر فينا تأثير البنادق. كان كلٌّ منا يحس بندقيته منذ اليوم الثالث كالسكين تحزُّ في كتفه وتنزل فيها إلى الإبط. فما يدري أكتفه باقية عضواً من أعضائه، أم هي على وشك الوقوع بين قدميه. ومنذ اليوم الثالث أخذ كلٌّ منا يخفف من حمله شيئاً. بدأ بإحراميه يرمي واحداً ويبقى واحداً، ثم رمينا قسماً كبيراً من الخرطوش، ثم

رمى بعضنا البنادق وتبعه البعض الآخر في اليوم الرابع والخامس والسادس. فلما كان اليوم الرابع عشر لم يبق من الجنود من يحمل بندقيه إلا فرنسوا وبضعة جنود، وكنت قد دعوته إلى رميها فقال:

ـ حينما رميتها ضحكتم مني، فأنا أحتفظ بها اليوم دونكم نكاية بكم!

وكنت أنظر إليه ينوء بها ويهده ثقلها فأشفق عليه. حاولت مرة أن أنزعها عن كتفه بالقوَّة فلكمني على وجهي. فصبرت صبر الصديق على صديق يعرف مصيبته.

وأخيراً وصلنا إلى الطريق، ونصبنا الخيام، وأقمنا نستريح بانتظار السيارات، ونمنا تلك الليلة نوماً عميقاً. واستفقت حوالي الساعة التاسعة صباحاً على هزّ فرنسوا لي من كتفي، فسألته لم قام مبكراً، وأنا أنفض بيدي النعاس عن عينيَّ، فلم يجب. ثم نظرت إليه جيداً فإذا هو منبوش الشعر وعيناه محمرتان بارزتان تريدان الخروج من وجهه، فقال:

ـ إني سأموت! أما قلت لك إني سأموت؟ لقد حلمتُ هذه الليلة أني ما أزال في الجبهة، وأنَّ الأعداء رمونا بالقنابل، فذهب كلٌّ منا يحفر خندقاً ليحتمي به، ولكني فتَّشت عن معولي فلم أجده، وناديت حوالي لعل أحداً يعطيني معولاً أو رفشاً، فلم يجبني صوت. فانكببت أحفر الأرض بأظفاري حتى سال منها الدم. ثم شعرت أنَّ قواي تخونني فلم أحفل وتابعت الحفر. وتحول الدم سيلاً، فانقلبت مهمتي من الحفر إلى إفراغ الحفرة من دمي، أعرف منها بكفي وأرمي على الجانبين. ثم عطشت فتناولت مطرتي، فلم يكن فيها قطرة ماء، فانحنيت فوق الحفرة، وقد صارت بركة حمراء، أعبُّ منها حتى ارتويت. وكان طعم دمي حلواً في حلقي حلاوة لا أستطيع وصفها. وكلما شربت زاد عطشي، وألحَّ بي طالباً المزيد من الشرب، فما زلت أفعل حتى جفت البركة: فتطلعت، فإذا في قعرها شيء يلمع، ففتحت عيني جيداً فإذا أنا بكنز من أغلى كنوز الدنيا، وإذا لآلئه وماسه وذهبه وزبرجدُهُ وسائر جواهره التي ليس لها اسم تضيء كالشمس. فخفت على الكنز أن يفضحه نوره، فيعرف به رفاقي، فنزلت

إلى الحفرة، وجعلت نفسي فوقه كما تجعل الدجاجة نفسها فوق فراخها، فظلت الأشعة تنطلق من بين يدي ورجلي. فقلت: ليس لي إلا أن أرد التراب على الكنز وعليَّ، فرددته ودفنت نفسي. أسامع أنت يا صديقي؟ رددت التراب ودفنت نفسي! إنَّ هذا الحلم معناه أني سأموت! سأموت! أما قلت لك إني لن أرجع إلى وطني وأهلي سالماً؟

في الواقع أن حلم فرنسوا كان رهيباً، ولكني لم أستغرب أن يزور مثل هذا الحلم نفساً قلقة مثل نفسه. فجعلت أخفف عنه بما حضرني من الكلمات، وهو ساكت يغرس في الأرض أنظاراً عميقة..

تأخرت السيارات أياماً.

فانتشرت بين الجنود الإشاعات، وبلغ التذمر منهم مبلغاً. فلم ير الضباط بداً من شغل فراغهم، فصدرت الأوامر إلينا أن نقوم بالتمارين مرتين في اليوم قبل الظهر وبعده. وكان على كلٍّ منا أن يذهب إلى الحقل فيقص عصاً يحملها بدلاً من البندقية التي رماها في الطريق. فلما كنا في التمرين الأول خرج فرنسوا من صفه وذهب تواً إلى الضابط. فدهش الضابط

من فعلته، وجمد مكانه ينتظر، فما راعه وراعنا جميعاً إلا فرنسوا يتناول بندقيته من رأسها ويرفعها إلى العلاء، ثم يهوي بها هوياً واحداً على الأرض محاولاً تحطيمها وهو يصيح:

الحرب! الحرب! الحرب دائماً! قلتم لنا إن الحرب انتهت، وقلتم لنا قبل أن نذهب إلى الحرب إن هذه الحرب هي الأخيرة! فعلام التمارين إذاً؟ أتريدون حرباً جديدة؟

فاستشاط الضابط غضباً، ودمدم بعقوبة لفرنسوا لم نستطع أن نعرف ما هي، وأمر برفع البندقية. فقذفه فرنسوا بابتسامة احتقار، ثم لمعت عيناه فأمسك ببندقيته ودار حواليه، فتناول حجراً وانحنى يدقها به دقاً عنيفاً، مكشراً عن أسنانه كالحيوان الهائج. فلم يطق الضابط صبراً، فهجم عليه يشده إلى جانب. فلم يكن من فرنسوا إلا أن رفسه رفسةً بحذائه الضخم، فجاءت في الهواء. فسارت بين الصفوف غمغمة هزء بالضابط، وكأنَّ فرنسوا سمعها فشجعته، فالتفت إلى الجنود وصاح:

ـ أيُّها الرفاق! ليذهب كلٌّ منكم إلى بيته! (أي بيت في ذلك الحقل البعيد الموحش؟) إنَّهم يخدعوننا، يريدون أن يلقوا

بنا إلى الموت مرة أخرى، فكأنَّ الموت لم يشبع بعد، والموت قد شبع! الموت قد شبع!

وكنت أراقب حركات فرنسوا وأصغي إلى أقواله وأنا مشدوه. على أن الجنود كانوا منصرفين إلى الضابط باهتمامهم، ينتظرون كيف سيتخلص من هذا المأزق، فإذا به يدور، ثم يعود منتصباً كالعمود، وينادي صفا منا أن يقترب ويقبض على المتمرد. وكنت أنا في ذلك الصف. فلما أوصلناه إلى الخيمة التي أشار إليها الضابط قال لي صديقي:

ـ قلت لك إن الموت أكل وشبع، ولكنَّه لم يُحلِّ ضرسه بعد، وسيحليه بي كما سنرى.

وكان الضابط قد وصل وراءنا، فأبى إلا أن يضع قيد الحديد هو نفسه بيدي فرنسوا، وساعدناه نحن عليه فأمسك جندي بذراع وأمسكت أنا بذراع. فالتفت إليَّ فرنسوا، وأنا أشد على ذراعه، التفاتة لم أفهم أهي التفاتة عتاب، أم التفاتة اشمئزاز، ولكني لم أستطع أن أوقف عيني على عينيه، وأدرت وجهي ومسحت بطرف كمي دمعتين.

وحاولت إفهام الضابط أن فرنسوا مريض، وأن من الواجب أن يعذره لأنه لم يفعل ما فعل عن عقل. فلم يصغ إلي، وأمرني أن أبيت في الخيمة القريبة من خيمة السجين. وهدَّدني بوضع القيد في يدي إن نبست ببنت شفة. فعدت أتوسل إليه أن يستمع إليَّ. وكان رجلاً طيب القلب، فأشعل سيكارة، فأخذت أشرح له ما أعرفه عن فرنسوا من الحقيبة، إلى البندقية، إلى الحلم. فاقتنع بكلامي واستدعى له الطبيبين وكان في الفرقة طبيبان، فأقبلا معاً، فاختلفا في أمره، فقال أحدهما إنه مجنون، وقال الآخر بل متمرد يستوجب العقوبة، فتدخل الضابط فرجّح الرأي الأول لينقذ نفسه من عار الحادث على الأقل!

وظل فرنسوا في سجنه يومين هادئاً هدوءاً مدهشاً طول النهار، حتى إذا جاء الليل أصابته نوبة فظيعة، فجعل ينبش شعره ويصيح طالباً بندقيته:

ـ أعطوني بندقيتي! ردوا إليَّ بندقيتي!

ثم يلين صوته حتى يصير استعطافاً باكياً:

ـ أما تريدون أن تردوا إليَّ بندقيتي؟ أتوسل إليكم، أريد أن أراها، أن أستغفرها عما بدر مني من ذنب.. حاولت تكسيرك يا بندقيتي الجميلة. أهنتك يا بندقيتي المعبودة. ولكنك ستغفرين لي، ستغفرين، أليس كذلك؟ بلى... بلى... ها... ها... ها أنا أقبلك! ها أنا أغسلك بدموعي.

ثم يعود الصوت فجأة إلى العنف:

أيها الأعداء! خذوا الموت من هذه الفوهة! من هنا! من هنا! من هنا نبني الأوطان، من هنا نعمر المدنيات... من هنا، من هذه الثغرة الصغيرة تخرج آلاف الثكالى، والأرامل، والمفجوعين والمفجوعات بالأخ، والعم، والخال، والحبيب. من هنا، من هنا... ها، ها، ها. وراء أيها الأعداء، وراء! ماذا أقول؟ لا، لا، بل تعالوا.

اقترب مني أنت أيها الجندي الذي يحاربني، لماذا تحاربني، ولماذا أحاربك؟ لا تسدِّد بندقيتك إليّ! ماذا عملت لك؟ هل قتلت أباك؟ هل شتمت أمك، أو سرقت دارك؟ ما عملت لك لكي تقتلني؟ من أنا؟ هل رأيتني قبل الآن؟ وهل سمعت اسمي؟ فكيف تقتل من لا تعرف؟ قلت لك لا تسدد

بندقيتك إلي. جنبها عني، ارمها، حطمها! حطم بندقيتك، حطم هذه الآلة الملعونة! حطمها، حطمها، حطمها. خذ هذا الحجر ودقها به، دقها أيضاً، دق، دق، دق، ها، ها، ها، فليحيى الموت!.

في صباح اليوم التالي تعالت تهاليل الفرح بين الجنود، فقد جاءت السيارات لتنقل كلاً منهم إلى وطنه، إلى بيته الهادئ، وفراشه الوثير، وأحضان أهله وأحبابه، فاستفقت على الأناشيد تشق الفضاء في ذلك الصباح الجميل، وعلى قرقعة السيارات وتحميل الأمتعة، وذهبت إلى الضابط أستشيره في أمر السجين. فمسح كتفي بيده، وأوصاني أن أتسلم فرنسوا وأتعهده في الطريق.

فطمأنته، وقلت إني سأوصل صديقي إلى بيته ولو كلفني ذلك يوماً أتأخره عن أهلي.

كان النهار نيراً صافياً، والسيارة تنهب بنا الأرض، وفرنسوا يجيل في الحقول عن يمينه وشماله نظراً هادئاً شارداً، وكنت واضعاً يدي على كتفه أسأله بين الحين والحين:

أما نزال بعيدين عن البيت؟... يا لفرحة زوجتك وولدك بك بعد قليل! ألم ترسل إليهما كتاباً تبشرهما فيه بوصولك اليوم؟ ولكن حسناً فعلت، إن للمفاجأة لذّة، تصور ابنك يثب إليك ويتعلق بعنقك! كم عمره الآن؟ يجب أن يكون قد صار شاباً في غيابك!... أليس كذلك؟

ـ هاي! أنت يا سائق! على مهلك، أتريد أن ترمينا في الوادي؟ وهزّ فرنسوا السائق من ذراعه، فهتفت وقد خفق قلبي بالفرح:

ـ فلتحي الحياة! فلتحي الحياة!

فأدار فرنسوا وجهه إلي وابتسم ابتسامة قلقة، ثم مدَّ يده من نافذة السيارة وأشار هاتفاً:

ـ هذا هو، هذا هو...

ـ ماذا؟

ـ البيت! البيت! بيتنا!... أسرع أيها السائق أسرع!... هاي! هاي! أتريد أن تقلب بنا السيارة! (والتفت إليَّ قائلاً): الموت موجود أيضاً تحت دواليب السيارة، أليس كذلك؟

ـ أف! أتصل إلى البيت وأنت ما تزال تفكر بالموت؟

فبسط فرنسوا ذراعيه متمسكاً بركبتي من جانب، وباب السيارة من الجانب الآخر. حتى إذا وصلت بنا أمام درج البيت ترجلت أمامه، ودعوته إلى النزول، فبقي مكانه، فدنوت فاعتمد كتفي ومشينا، فلما وصلنا أمام الباب رفع كفه ليدقه، ولكنَّ يده وقفت في الفضاء فجأةً، فسألته ما به فأدار وجهه إلي ببطء، ببطء عظيم وكأنه صخر يتحلحل، وانفتحت عيناه في عيني جامدتين هائلتين، فأردت أن أحول عيني عن تينك العينين فلم أستطع، وانتظرت أن يحولهما هو عني فلم يفعل. فحاولت أن أقول له شيئاً فلم تطعني شفتاي، فجعل قلبي يخفق، وأحسست بمثل الاختناق في حلقي، فعزمت أن أرفع يدي إلى كفه الباقية إزاء الباب، فالتصقت بثيابي. ومرت دقيقة طويلة، طويلة كأنها دهر، وعيناه في عيني براقتان كالزجاج على شمس الهجيرة، حتى سمعت صرير الباب تفتحه يد من الداخل، فارتعدت، فرفعت عيني، وانحلت عقدة لساني، وهممت بأن...

فإذا بفرنسوا يقع على عتبة بيته جثة هامدة!

المحتوى

توفيق يوسف عواد مبدع متعدد المواهب/ تقديم مالك صقور 5
قميص الصوف 13
الوسام 39
توهَا 61
بهية 85
الرفيق كامل..... 103
كاراخو 123
ميثاق الموت 139

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري -رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد /د.طه حسين ميخائيل نعيمة - فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم -بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني)/ إطلالة على :(المصطلح النشاة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني	د. حسين	عبد	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
	رائد المسرح العربي	جمعة	القادر الحصني	
11	نازك الملائكة	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د.حسين جمعة	د.حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د.حسين جمعة	د.خالد محي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د.حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د.حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د.حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
21	التراب الحزين بديع حقي	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى-نزار قباني	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غادة السمان	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبة قمر كيلاني	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق -مكان وسكان وألوان	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة - خليل السواحري	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2009
29	جبرا ابراهيم جبرا- عرق وقصص أخرى	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2009
30	محمود درويش - مختارات شعرية من دواوينه والانترنت	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمال أخرى-غسان كنفاني	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2009
32	عذبة رواية-صبحي فحماوي	د.حسين جمعة	فادية غيبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د.حسن حميد	د.حسن حميد	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
34	أسئلة الثقافة في القدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د.حسين جمعة	د.حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د.حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان في القصة السورية (حضور المكان)-علي المزعل	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د.حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيرى الذهبى	د.حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصة ليلة الوداع -رشاد أبو شاور	د.حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمالي ـ ـ مختارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبير سلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالث وقصص أخرى مختارات قصصية -د.خليفة صالح أحواس	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د.حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	انطوان تشيخوف دراسات ونصوص د. شاكر خصباك	د.ابراهيم الجرادي - عبد	د.ابراهيم الجرادي - عبد	2010

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
		العزيز المقالح	العزيز المقالح	
45	عبد الله البردوني قصائد مختارة ودراسات	د.حسين جمعة	د. ابراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسعينيات والأنماط الشعرية السائدة)	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمي العربي - رقم 004 بأمركم	د.طالب عمران	د.طالب عمران	2011
48	الله والغربي مختارات شعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د.ثائرزين الدين	2011
49	مایاکوفسکي غيمة في سروال	مالك صقور	د. ابراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليأس : أمل يستنسخ أوصافه	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
51	الفراتي مأخوذاً بالوردة والسيف مختارات شعرية	د.حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د.علي جعفر العلاق	د. ابراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جان جاك روسو المصلح الاجتماعي - عطية الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي	د.جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012
58	بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) عام 1968 مدحة عكاش-	د.حسين جمعة	مالك صقور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صقور	مالك صقور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012
64	الأعاصير - الشاعر القروي رشيد سليم الخوري	د.حسين جمعة	د.ثائرزين الدين	2012
65	عبد اللطيف عقل دراسات ومختارات	ياسين قاعور	ياسين قاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د.حسين جمعة	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د.حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د.نزار بريك هنيدي	د.حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقه والتصوف والمسائل الشرعية في الخلافة	أ.د. راتب الحلاق	مالك صقور	2013
76	صالح العلي ثائراً وشاعراً	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د.نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
79	الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي	د.نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
81	مديح الظل العالي	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
82	معارك فكرية	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صقور	أ.د.حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
97	الإسلام بين العلم وألمدنية	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2015

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
99	شظايا من عمري	شاهر أحمد ناصر	مالك صقور	2015
100	لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم	أ.د.حسين جمعة	مالك صقور	2015
101	الدين والعلم والمال		مالك صقور	2015
102	غاية الحق (أفق التنوير وجماليات السرد)	نذير جعفر	د.نضال الصالح	2015
103	في الحياة والأدب	نذير جعفر	د.نضال الصالح	2015
104	إن الأدب كان مسؤولاً	مالك صقور	د.نضال الصالح	2016
105	أسرة المرّاش الأدبية في حلب	د.نضال الصالح	عيسى فتوح	2016
106	الجوهر الرجعي للصهيونية	مالك صقور	مالك صقور	2016
107	سريال وقصائد أخرى	د.نزار بريك هنيدي	د.نضال الصالح	2016
108	حضارة الطين	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
109	ضرورة الفن الجزء الأول	نذير جعفر	مالك صقور	2016
110	ضرورة الفن الجزء الثاني	نذير جعفر	مالك صقور	2016
111	قادة الفكر	فلك حصرية	مالك صقور	2016
112	جرائم تركيا في سوريا والعراق والحجاز ولبنان	حكمت إبراهيم هلال	مالك صقور	2016
113	خارج الحريم	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
114	عيسى عصفور (بلاغة البازلت)	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2016
115	رحلة الشام لإبراهيم عبد القادر المازني	د.نزار بني المرجة	د.نضال الصالح	2017
116	(عملاء النفوذ) وتفكيك الاتحاد السوفييتي	د.ناديا خوست	مالك صقور	2017
117	المذابح في أرمينيا	حكمت براهيم هلال	مالك صقور	2017
118	نزاريّات...أيقونة الحب... والوطن	فلك حصرية	فلك حصرية	2017
119	من ديوان الجرح السوري	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2017
120	الله والفقر	مالك صقور	مالك صقور	2017
121	قسطنطين زريق مفكراً ومؤرخاً	عيسى فتوح	عيسى فتوح	2017
122	جرح الوطن	م. حديفي	م. حديفي	2017
123	فن القصة والمقامة	نذير جعفر	مالك صقور	2017
124	فلاسفة الحكم في العصر الحديث	فلك حصرية	مالك صقور	2017
125	أشعب ملك الطفيليين	فلك حصرية	مالك صقور	2017
126	فيلسوف الفريكة	د.خلف الجراد	مالك صقور	2017
127	الخيال الشعري عند العرب	فلك حصرية	مالك صقور	2018